الجمهورية العربية السورية

وزارة التعليم العالي

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

دراسة بعنوان

الاحتفالات في عصر المماليك

(648- 922 هـ / 1250- 1516 م)

رسالة جامعية أعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام

إشراف

الأستاذ الدكتور جباغ قابلو

إعداد الطالب

نبيل جميل قرحيلي

1431هـ /2010م

الإهداء

إلى من يمنحني الأمل في المصاعب والملمات.......فأرى فيهم السند والعون........

أبي – أمي

إلى جسور تواصلي مع الحياة............

إخوتي

إلى خيمة الحنان..........وربيع حياتي........إليك أنت شيئاً من الثمر

زوجتي

إلى من أرى ضوء الشمس من خلالهم في دروب الظلمات.......

إيانا – هادي

إلى من علمني أن الطموح لاينتهي............

بطاقة شكر

إلى أستاذيّ الفاضل ....أهدي عظيم شكري وتقديري....... عرفاناً

بأستاذيته وعلمه وخلقه........ واعتزازي بإشرافه على هذه الرسالة....

الأستاذ المشرف

المحتوى

الصفحة

رموز الرسالة

تح = تحقيق

ج = جزء

ص = صفحة

ط = طبعة

ق = قسم

مج = مجلد

د.ت = دون تاريخ

م = ميلادي

هـ = هجري

المقدمة

شغل العصر المملوكي مكانة مهمة بين عصور التاريخ، بسبب كثرة أحداثه التي مازالت آثارها باقية،وأحداثها ذات أثر واضح حتى الآن، وربما كان للأوضاع التي أصبح للعالم الإسلامي منذ القرن الثالث أثر كبير في توضيح الدور المهم الذي قامت به دولة المماليك، فقد أدى استيلاء المغول على العراق، وسقوط الخلافة العباسية في بغداد من ناحية، ثم تدهور أحوال المسلمين في الأندلس من ناحية أخرى إلى اتجاه أنظار المسلمين في المشرق والمغرب نحو مصر المملوكية باعتبارها المقر الجديد للخلافة العباسية، ومقر القوة الفاعلة التي نجحت في حماية مصر والشام من الخطر المغولي، كما نجحت في إخراج الصليبيين من الشام.

إن البحث في التاريخ المملوكي مسألة ليست سهلة، بل تحتاج إلى مراجعة وتدقيق، وتحليل تاريخي لأحداث داخلية، وتطورات خارجية كبيرة عاشتها الدولة المملوكية على مستويات مختلفة.

تعد الاحتفالات من الموضوعات المهمة التي تبرز بشكل واضح الصورة الباقية لتلك الحضارة، والرغبة الكبيرة في الاهتمام بالاحتفالات؛ لأنها كانت ولا تزال من أكثر الموضوعات ارتباطاً بنواحي الحياة المتعددة. كانت بنية المجتمع المملوكي طبقية اختلفت صفاتها، وخصائصها ومظاهرها، ومكانتها في الدولة والمجتمع وما لها من حقوق وما عليها من واجبات بين طبقة وأخرى، كما أن الاختلاف شمل اختلاف الشام عن مصر من حيث رابطة الدم، والجنس، والأصل وحتى اللون، وهذا ما جعل المماليك يشعرون في حالات كثيرة بالغربة في المجتمع، مما دفعهم إلى العيش حياة مستقلة أعطوا الرفاهية جانباً مهماً في حياتهم، وأنفقوا كثيراً من الأموال على احتفالاتهم الخاصة.

1- أسباب اختيار البحث وأهميته:

يعد العصر المملوكي من العصور المهمة في تاريخ بلاد لشام و مصر بشكل خاص ، لذلك ما زالت الدراسات العربية قاصرة عن الإحاطة بأحداثه وتأثيراته الهامة، فهي بحاجة إلى

دراسة سياسية شاملة تعالج هذه المرحلة وذلك بالانكباب المستمر على نشر المخطوطات وأمهات الكتب(الكتب الأصلية).

كتب المؤرخون عن حكم المماليك وصفاتهم لكن كتاباتهم لم تتعرض بشكل تفصيلي لنواحي معينة في حياتهم، فبالرغم من ظروف نشأتهم وكثرة الدسائس والمؤامرات والفتن، فإنهم أعطوا حياتهم الخاصة واحتفالاتهم جانباً مهماً، بحيث كانوا يحيطون أنفسهم بجميع مظاهر الفن والجمال والأبهة، وهذه المظاهر شكلت حلقة في منظومة حياتهم العامة (السياسية والاجتماعية).

والبحث في موضوع الاحتفالات المملوكية من الموضوعات المهمة التي لم تستحق الدراسة والبحث بمزيد من العناية،والتعمق والتحليل،والاستنباط، والاستنتاج، وقد تطرق عدد من الباحثين والمهتمين إلى الموضوع لكنّه بقي إشكالية تحتاج إلى مزيد من الدّراسة المعمّقة.

توضح دراسة الاحتفالات في عصر المماليك الكثير من جوانب الحياة العامة السياسية و الاجتماعية خاصة الاحتفالات التي اعتنى بها السلاطين، والتي عكست العلاقة بين السلطة والعامة.

ويمكن من خلال دراسة الاحتفالات التعرف على سياسة المماليك تجاه الطوائف الأخرى وموقفهم منها سواء كان سلبياً أم إيجابياً، وبالتالي التعرف على أبعاد هذه الاحتفالات، ورموزها في سياسة السلاطين الذين اجتهدوا في استثمار هذه الاحتفالات، وخاصة الدينية منها لخدمة مشروعهم السياسي.

تأتي أهمية هذا الموضوع من خلال معرفة العلاقة بين السلطان ومماليكه الخاصين، وبالتالي الوصول إلى بعض الخصوصيات في نظام الحكم للسلاطين المماليك.

إن خصوصية هذا الموضوع وأهميته مرتبطة بخصوصية المرحلة التاريخية التي بُحث فيها موضوع الاحتفالات؛لأنها تعد المرحلة الذهبية في تاريخ بلاد الشام ومصر، وهو ما يمكن عده عاملاً من عوامل تعدد الاحتفالات، والأعياد، ومظاهر الترف، والرموز التي ارتبطت بها.

ويمكن من خلال هذه الاحتفالات الوصول إلى مدى تأثير المماليك في عادات أهل البلاد الأصليين من العامة، والتعرف على ميزات الوضع الديني الإسلامي في هذه المرحلة.

تعدُ الاحتفالات من أعياد، ومواكب سُلطانية مؤشراً مهماً من شأنه أن يعكس مدى تقدم المجتمع؛ لأن المماليك حاولوا من خلال هذه الاحتفالات إظهار الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي كان يتمتع به سلاطين المماليك، كما كانوا يبحثون من وراء إحياء هذه المناسبات الدينية

وسواها استغلال الواجهة الدينية في خدمة أغراض سياسية أهمها البحث عن الشرعية لحكمهم العسكري باعتبارهم من المماليك (العبيد)، والظهور بمظهر حماة الدين الإسلامي ودياره، واستعراض قوتهم العسكرية.

إنّ المصادر التاريخية تشير إلى هذا الموضوع، وتبقى مهمة الدارس الاجتهاد في تقصي هذه الإشارات ومحاولة فهمها وحسن توظيفها.

2- إشكالية البحث وأهدافه:

شكل الحكم المملوكي في مصر وبلاد الشام جزءً مهماً من الحكم الإسلامي في الوطن العربي، ووصل المماليك إلى ذروة نهوضهم في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري (658-676 هـ / 1260- 1277 م) وذلك بسبب توفر عنصر الاستقرار السياسي بعد التصدي للخطرين المغولي والصليبي، وانتعاش النشاط الاقتصادي وخاصة التجاري. لقد انعكست هذه العوامل مجتمعة بشكلٍ إيجابي على صورة الحياة اليومية وعلى العادات الاجتماعية فيما يخص إحياء الاحتفالات الدينية وغير الدينية دون أن ننسى الاحتفالات المملوكية الخاصة بهم، والتي يظهر من خلالها مدى ترفهم وقوتهم، وقد تجسد ذلك في ظهور السلطان في مواكب خاصة بشعائر السلطنة اختلف كل موكب عن الآخر باختلاف المناسبة.

ويطرح البحث تساؤلات عدّة لابدّ من الإجابة عليها؛ لأنها تفتح آفاقاً هامة للعمل تظهر خصوصية هذه المرحلة من خلال التعرض لمختلف هذه الاحتفالات، ومواكب الأعياد والألعاب المملوكية تبين من خلالها علاقة الأعياد بالمنطقة، ودور سلاطين المماليك في نموها.

إنّ الهدف الرئيس من هذه الدراسة توضيح علاقة العلماء بالسياسة، ومدى قدرة سلاطين المماليك ونجاحهم في استغلال هذه المظاهر الدينية والاحتفالية لخدمة مشروعهم السياسي، وتخطي الأخطار الداخلية والخارجية المتمثلة أساساً في بقايا المعارضة الأيوبية لحكم المماليك، وصد الخطرين المغولي والصليبي اللذين يهددان استقرار حكمهم، وبالتالي التعرف على خصوصيات النظام المملوكي، ومدى نجاحه في خلق نظام خاص بهم.

ولعل الإجابة عن هذه التساؤلات توفر القدرة لفهم نقاط عدّة حول الرموز التي تحملها بعض هذه الاحتفالات، والتي لا تزال محل جدل وخلاف في وجهات النظر العلمية التاريخية.

يطرح البحث تساؤلات عدّة ومنها:هل كان استحداث هذا الاحتفال أو غيره لأسباب دينية أم سياسية،أم اجتماعية،أم اقتصادية. يمكن عدُ هذه النقاط أهدافاً أساسية لدراستنا، والتي يمكن تلخيصها من تساؤل وحيد وهو مامدى نجاح سلاطين المماليك في توظيف الدين خدمة لمشروعهم السياسي، والتوفيق بين التقاليد الإسلامية، وتقاليدهم الخاصة، وإيجاد نظام سياسي متميز وغريب بعض الشيء عن النظم الإسلامية التقليدية.

إن مثل هذا الموضوع يفتح إمكانية البحث في موضوعات أخرى، ومجالات مختلفة للبحث كالبحث في البلاط المملوكي على سبيل المثال، ومميزاته، ومقارنته ببلاط الدول الإسلامية السالفة.

3- الصعوبات:

على الرغم من توفُّر المصادر التاريخية الحولية، و كتب السير،والدراسات الأخرى التي قام بها بعض المستشرقين، فقد وجدت صعوبة في التعامل مع عدد من المصادر والمراجع للتشابه في المعلومات؛ لأن معظمها اعتمد أسلوب النقل، والاقتباس، إضافة إلى التكرار في المعلومات المنقولة من مصدر واحد، وعدد من هذه المصادر يفتقر إلى التوثيق الدقيق.

ويتطلب البحث في موضوع الاحتفالات جهداً خاصاً، وتركيزاً عالياً للبحث والتمحيص في بطون أمهات الكتب ، ومحاكاة آراء المؤرخين وأفكارهم، ووضع آرائهم في مواضعها المناسبة.

وأتمنى أن أكون قد وصلت إلى الغاية المرجوة من البحث؛ لأن العمل بلا غاية والجهد بلا ثمرة ضرباً من اللهو. والبحث العلمي هو محاولة جادّة لتحقيق أمر غامض، أو تفسير شيء مبهم، أو بيان أمر مغمور، أو كشف مجهول، أو تقرير موقف، أو إظهار حقيقة، وكل ذلك يكون عرضة للقصور التي هي جزء من طبيعة البشر. وحاولت في هذا البحث الموجز أن أجمع العناصر الرئيسة والخاصة بالموضوع.

الحمد لله العلي القدير وأسأله أن يجعل أعمالنا العلمية خالصة للنفع العام ومصلحة ومستقبل البحث العلمي علَّ الأجيال القادمة تفيد منه.

والله ولي التوفيق

4- المنهج في البحث:

تعتمد الدراسة على المنهج التاريخي الذي يعتمد بدوره على المنهج التحليلي العلمي لكافة المعلومات الواردة في المصادر الأصلية، والمصادر المشتقة، ونقد الآراء التي كتبت حول الدراسة والقابلة للنقد أملاً في الوصول إلى حقائق تاريخية موضوعية حول جوهر التاريخ العربي الإسلامي في العصر المملوكي؛لأنَّ لكل طالب دراسة ظروفه الخاصة، ولكل مادة ما يناسبها من طرق لتحقيق أهداف البحث وسط الظواهر التاريخية الموجودة.

كانت الدراسة مكتبية ،جرى خلالها الاطلاع على المصادر الأساسية التي كانت عماد دراستي إضافة إلى المراجع التي تناولت تلك الفترة

ونظراً لتشعب موضوع البحث، فقد قسم إلى فصول موسعة ليسهل الوصول إلى المعلومة دون الالتزام بقراءة الرسالة قاطبة.

خصص المدخل لمعالجة القضايا السياسية حتى نهاية المماليك، وحاولت أن تكون الموضوعات التي تناولها هذا الجانب شاملة لمفردات التاريخ المملوكي،ولكن بشكل مختصر جداً؛ لأنَّ التوسع فيها يعني الخروج عن نطاق موضوع البحث.

كما خصصت الفصل الأول لدراسة الأعياد الشرعية لدى المسلمين وأهمها عيدي الفطر والأضحى، وموكب العيدين، ثم تطرقت إلى الاحتفالات غير الشرعية التي شملت إحياء ليلة رأس السنة الهجرية، وإحياء الموالد، وزيارة القبور، والأولياء الصالحين، ثم ليالي الوقود، و بينت موقف المماليك من احتفالات الشيعة. إضافة إلى دراسة محمل الحج السلطاني، كما قمت بالبحث في احتفالات بقية طوائف المجتمع من اليهود والنصارى.

وحاولت في الفصل الثاني دراسة الاحتفالات المملوكية،والتي شملت إحياء الخلافة العباسية في القاهرة والاحتفال بتولية الخليفة، وتولية السلطان المملوكي، وترقية المماليك، وفي هذا الفصل وضحت طبيعة الاحتفالات السلطانية، وطريقة القيام بها، وعودة السلطان من الحرب أو شفائه من المرض، أو خروجه إلى اللعب والصيد والنزهة.

وفي الفصل الثالث قمت بدراسة الأعياد المصرية الموروثة، كوفاء النيل، وكسر الخليج، وعيد الشهيد ، إضافة إلى دراسة الأعياد الفارسية كعيدي النوروز، والمهرجان.

أما الفصل الرابع فقد خصص لإظهار أماكن الاحتفالات المملوكية وطريقة ممارستها في الأسواق ،والمدارس، والزوايا .... الخ.. ثم وضحت العلاقة بين المماليك وأهل الذمة، والتأثر والتأثير بين الطرفين.

أما الخاتمة العامة: فقد جاءت لصياغة نتائج البحث؛إذ وضحت فيها أهمية الاحتفالات وما قدمته من صور عن المماليك،ثم باشرت العمل على النحو التالي:

1. إعادة الأيات الكريمة إلى سورها، فقد حاولت توضيح مواضع الأيات الكريمة وإعادتها إلى سورها في القرآن الكريم.
2. إعادة النصوص إلى مصادرها.
3. شرح الألفاظ الغريبة وإظهار معاني بعض المصطلحات الصعبة، وذلك بالرجوع إلى الكتب المختصة.
4. كما قمت باستخدام التقويم الهجري والميلادي.
5. و ضمت الرسالة جدولاً بأسماء المماليك البحرية والبرجية. كما قمت بوضع فهرس بأسماء المصادر والمراجع العربية والأجنبية المعتمدة في البحث، إضافة إلى فهرس الأعلام والأماكن.

وفي الختام، آمل أن أكون قد وفقت فيما عملت واجتهدت فلي أجران وإن لم أصب فلي أجر ، وحسبي أنها محاولة من طالب علم في بداية الطريق العلمي المعرفي.

5-دراسة نقدية لأهم المصادر والمراجع:

أدت دراسة الاحتفالات المملوكية إلى التعامل مع عدد كبير من المصادر التاريخية التي اعتمدت فيها على توضيح بعض القضايا في هذا البحث في محاولة للوصول إلى الحقيقة التي سوف تكون يتمُ من خلالها التعريف بالمصادر التي قامت عليها هذه الدراسة ، ومدى الفائدة منها، فقد تم تقسيم المصادر إلى كتب الحوليات، وترتيبها حسب قدمها أو قدم مؤلفيها، ثم كتب الموسوعات،والتراجم، وكتب السير والمعاجم، وجميعها رتبت حسب سنة وفاة أصحابها أو قدمها.

يجب أن نشير في البداية إلى أن جلّ المؤرخين كانوا مصريين وشاميين، فالمقريزي أمضى شطراً من حياته في بلاد الشام حين شكلت كلٌ من بلاد الشام ومصر آنذاك سلطنة واحدة، لذلك وضعت المصادر الشامية والمصرية كتلة واحدة، و تحدد طبيعة كل بحث من الأبحاث التاريخية نوعية مصادره،فكل موضوع له مصادره الخاصة، فالتاريخي له مصادره، والجغرافي له مصادره. وبما أن البحث هذا بحث تاريخي ، فقد كان لزاماً علي العودة إلى عدد متنوع من المصادر من كتب التاريخ العام، والحوليات، والتراجم، وكتب السير، إضافة إلى المعاجم التي أعطت صورة واضحة عن عدد كبير من المناطق الجغرافية، إضافة إلى مصادر ومراجع التاريخ الإسلامية،وهذا ما أدى إلى تنوع مصادر البحث مما جعل تعريفها أمراً صعباً.

وقد استندت هذه الدراسة على مصادر ومراجع مهمة ومنوعة لمؤرخين عاصروا الأحداث، والحقيقة أن مؤرخينا لم يقتصروا على تدوين الأحداث السياسية، بل جاوز الأمر الأوضاع الاجتماعية التي كان يعاني منها المجتمع آنذاك، فأعطانا أحياناً صورة فريدة وصادقة عن العصر، وهي:

* الكتب التاريخية:

<u>آ – الحوليات:</u>

1. **أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن عباس) (ت 665 هـ / 1266 م)**: مؤرخاً، محدثاً فقيهاً، أتقن الفقه والحديث،وبرع في اللغة العربية،وجمع العديد من المصنفات في فنون العلوم،ومن مصنفاته التي استفدت منها

(الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية)، بحيث رممت أجزاء من البحث [1] وخصوصاً لدى الحديث عن صلاح الدين وورثته.

2. **أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل) (ت 732 هـ / 1331 م)**: ولد في دمشق،ونشأ فيها أميراً في ظل أبيه الملك الأفضل، ومن ثم التحق بخدمة السلطان الملك الناصر ملك البلاد المصرية والسورية، عالماً بالفقه والطب والحكمة والتاريخ وعلوم أخرى، ويعد أحد أئمة المؤرخين الذين استطاعوا أن يصوروا لنا الأحداث السياسية في بلاد الشام ومصر.تعود براعته في ميدان الكتابة إلى ثقافته العالية ،وأهم مؤلفاته التي استفدت منها **(المختصر في أخبار البشر)** وهو كتاب تاريخ شامل بحيث حرص أبو الفداء على تجنب الاقتباس من المصادر الأخرى، وعلى ترتيب مادته بطريقة علمية منظمة [2].ومن خلاله حصلت على معلومات عن توران شاه وأعماله، واتهامه لزوج أبيه شجرة الدر بالاستيلاء على حكمه. وتطرقت إلى معركة عين جالوت.

3. **ابن كثير (عماد الدين إسماعيل القرشي) (ت 774 هـ / 1372 م)**: قدم معلومات ومواد تاريخية هامة صنفها في كتابه الشهير **(البداية والنهاية)**، وابن كثير شامي المولد والمنشأ، ألف كتباً متعددة في التاريخ والتفسير. اتبع ابن كثير في كتابه التسلسل الزمني سنة بسنة دون ذكر أي عناوين فرعية لها،وأتبع كل سنة بذكر وفيات الشخصيات الهامة، ومواد ابن كثير غنية جداً لكن ينقصها التحليل والتقصي والاستنتاج. كان أسلوبه قريباً إلى العامية منه

---

1 - الزركلي (خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1997، ج4، ص70/ حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بيروت، ج1، ص294/ ابن العماد (الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي الدمشقي): شذرات الذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ج5، ص318/ الكتبي (محمد بن شاكر): فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج2، ص269.

2 - ابن العماد، المصدر السابق، ج6، ص98/ الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص183. ابن كثير (أبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي): البداية والنهاية، توثيق علي محمد حسن، دار الكتب العلمية، 1974، ج16، ص158/

إلى الفصحى،وعلى الرغم من ذلك لم يستغنِ البحث عنها نظراً لغزارتها وأهميتهـا.شـملت الحديث عن السياسة ، فقد توزعت على فصول الأطروحة [1].

4. **ابن خلدون (عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين) (ت 808 هـ /1406 م):** مـن المـؤرخين العرب الذين أمضوا شطراً من حياتهم متنقلين بين المغرب ومصر والشام.انحدرت عائلتـه من أصل عربي يمني،واستقرت بداية في الأندلس قبل أن تغادرها إلى تونس كـي تـستقر فيها. توفي ابن خلدون في القاهرة وكان فصيحاً جميل الصورة عاقلاً. يعتبر كتابه(**ديـوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)** مـن أهـم الكتب على الإطلاق، وهو سبعة مجلدات ،وإن المستعرض لتاريخ ابن خلـدون يلاحـظ أن المؤرخ لم يختلف نهجه عما سبقه من أسلافه، فضلاً عن اعتماده على المصادر المعاصرة لبعض الفقرات وتلخيصها وصياغتها بما يتواءم مع أسلوب العبر. اقتـصرت الإفـادة مـن كتابه في مواضع قليلة وبسيطة (نهاية حكم الأيوبيين)[2]، بدراسة الطريقة التي قتـل فيهـا توارنشاه.

5. **المقريزي (أحمد بن علي) (ت 845 هـ / 1443 م):** وهو مصري المولد، وشامي النشأة. تأثر بعدة مؤرخين منهم ابن خلدون. يعد من أبرز مؤرخي مصر، تـولى عـدة مناصـب سياسية هامة منها: ديوان الإنشاء بالقلعة، ثم قاضياً عند قاضي قضاة الشافعية. اعتمد فـي كتابه **السلوك لمعرفة دول الملوك** ذكر معلومات هامة ومفصلة حول دخول المغـول إلـى بلاد الشام، كما ختم الحوادث بذكر الوفيات والترجمة لأصحابها باختصار، ثم جعل للـسنة الجديدة عنواناً جديداً، لذلك فإن الإفادة من كتابه **السلوك لمعرفة دول الملوك كبيرة** بجميـع جوانب الأطروحة،كالحديث عن شراء الصالح أيوب للمماليك من شـجرة الـدر وأعمالهـا

1 - Ibn Kathir: Historica Arabica. II. 1955. P.42- 88

2 - الزوادي (محمود): أضواء جديدة على محددات العقل العمراني الخلدوني، مركـز النـشر الجـامعي، 2003، ص12/ كراتشكوفسكي(إغناتي يوليانوفيتش): تاريخ الادب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشـم، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة، 1965، ص 439- 445.

وألقابها، وقد اعتبرها المقريزي أولى سلاطين المماليك، وتحدث عن موطن المماليك البرجية، ولم أستطع الاستغناء عنه في أي مكان منها، ويدل هذا على أن السلوك يحوي مادة إخبارية واجتماعية واقتصادية هامة جداً، أفاد توظيفها الأطروحة بشكل مناسب. و يعدُ كتاب **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** خلاصة مجهود شاق حيث كانت الفائدة من الخطط كبيرة في التطرق إلى تربية المماليك وأسواق بيعهم،ونظام الملك في سلطنة المماليك وخاصة فيما يتعلق بالنظام المالي والقضائي والمظالم وما أورد من تراجم كبار موظفي الدولة في دولة المماليك [1]. وكتاب **الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك** **يعدُ** بنفس أهمية الكتب السابقة؛ إذ يذكر فيه تفاصيل من حج من الملوك والخلفاء.

6. **العسقلاني (أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر) (ت 852 هـ /1449 م)**: عسقلاني الأصل مصري المولد، ألف عدة كتب في التاريخ العام وفي التراجم، يحتوي حوادث الزمان منذ سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة حتى وفاته، أهم كتبه: **إنباء الغمر بأبناء العمر** ويقع في تسعة أجزاء، حوت حوادث اعتمدت على سنة، والأوضاع السياسية ثم أتبعها بوفيات الأعيان، وكانت الإفادة منه كثيرة . ومن كتبه **(الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)**، فهو كتاب شامل لأعيان العصر من علماء وفقهاء وسياسيين. نهج ابن حجر في تأريخه الترتيب الأبجدي وقد أمكن الاستفادة منه كثير[2].

7. **العيني (محمد بن أحمد بن موسى بدر الدين) (ت 855 هـ / 1451 م)**: تولى مناصب ووظائف متعددة، كان لإتقانه اللغة التركية أثر كبير في تقريبه من السلاطين المماليك. بدأ التأليف وهو في الحادية والعشرين من عمره، وبقي على مدى سبعين عاماً في التأليف، والتفسير، وعلوم الحديث وعلوم الفقه واللغة والمنطق... الخ. خلّف لنا العيني مؤلفاً ضخماً أسماه: **(عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان) أهميته:** توازي أهمية السلوك بل تفوقه أحياناً بما يحتويه من معلومات ، ولعل أهميته أن العيني أشار بصراحة إلى المصادر التي اعتمد

---

1 – السخاوي (محمد بن عبد الرحمن): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة، ج2، ص8/ مناف (محمد عبد الله): مؤرخو مصر الإسلامية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1969، ص85.

2 – ابن العماد، المصدر اسابق، ج7، ص269.

عليها ونقل عنها. أرّخ العيني في عقد الجمان للأحداث التي عصفت ببلاد الشام منذ قـدوم هولاكو، ويظهر أن شجرة الدر آخر سلاطين الأيوبيين على اعتبارها زوج الصالح أيـوب، حيث جمع في كتابه من الحوادث وأخبار الأعيان ما يعتبر فريداً مـن بابـه، دقيقـاً فـي معناه[1].

8. **ابن شاهين الظاهري(غرس الدين خليل ابن شاهين الظاهري) (ت 837هـ/ 1468م):** أحد كبار رجال الإدارة في دولة المماليك ، ولد في القدس تلقى تعليمه في مـصر، شـغل مناصب عدة فكان والياً على الإسكندرية وأميراً للحج لعام 845هـ /1443م ثم أصبح والياً على الكرك وصفد وملطية وأتابكاً لحلب، وتولى في دمشق مناصب عدة، وفي كتابه **زبـدة كشف الممالك في بيان الطرق والمسالك** جهد الظاهري في تقديم صورة متكاملة لجوانـب النظام الإداري لمصر، وفي الباب الثاني من كتابه يشير إلى الكلام عن نظام السلطنة ومـا يتحلى به السلطان من الصفات، ويصف المواكب الشريفة والملبوس، وبشكل عـام يتميـز كتابه بالتلون وبأهمية كتابه[2] .

9. **ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف) (ت 874 هـ / 1469 م):** مصري المولد والنشأة، أخذ عن مشايخ كثر مختلف علوم عصره بمصر والشام والحجاز، لزم المقريزي والعينـي، ونهج منهجهما، واتبع أسلوبهما ونمطهما في التحصيل. من مصنفاته **النجوم الزاهـرة فـي ملوك مصر والقاهرة** شمل تاريخ مصر من سنة 20 هـ /640 م إلى سـنة 872 هـ / 1457 م وهو كتاب ضخم ضمّ عدداً كبيراً من التراجم بالإضافة إلى أخبار أدبية واجتماعية واقتصادية، فكانت الإفادة من كل ذلك وقد تحدث عن أسعار المماليك ومعركة المنصورة و مقتل أيبك، تأتي أهمية كتبه كونه يؤرخ بشكل موسع للعصر المملـوكي، اعتمـد أسـلوب الحوليات، فقد ذكر السنين وحوادثها تباعاً من غير أن يجعل لها عناوين مستقلة، حتـى إذا توفي السلطان أتى على أخباره مرة أخرى في ترجمة منفصلة وشـرح أخلاقـه وعوامـل

---

1 - السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص135/ الطباخ: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الـشهباء، حلـب، 1935، ج5، ص258.

2 - المنجد، مدينة دمشق، ص 290.

نجاحه أو إخفاقه، ثم أعقب ذلك كله ترتيب سنوات العهد ترتيباً عددياً، وذكر وفيـات كـل منها. يساعد هذا الكتاب الإطلاع على الجو العام الذي عاشته البلاد وما لحقها من اضطراب وفوضى وأضرار مادية وبشرية جسيمة والتعرف على سلاطين المماليك البرجية و البحرية. وبالتالي أمكن الإفادة من مواده في جميع فصول البحث[1].

10. **ابن إياس (محمد بن أحمد) (ت 928 هـ / 1521 م)**: أمدنا بمعلومات غنية هامة متضمنة في كتابه **بدائع الزهور في وقائع الدهور** ويعتبر كتاب بدائع الزهور أحد المصادر الهامة لعصر المماليك الجراكسة وأوائل العصر العثماني، يقع في أحد عشر جزءاً، يتناول حقبة زمنية تمتد من بدء التاريخ حتى سنة 928 هـ /1521 م، سنة وفاته. جمع ابن إياس بين أسلوب المقريزي وابن تغري بردي في تقسيمه لكتابه، إذ قسمه إلى عهود مستقلة، وأشار إلى السنين بعناوين واضحة، لكنه شذ عنهما بعدم ترتيبه الوفيات ترتيباً منفصلاً مثل أسلوب ابن تغري بردي، ولم يكتبها في نهاية الفصول كما فعل المقريزي، بل أشار إليها بإيجاز. وقد كانت الفائدة منه عامة في أجزاء عديدة من البحث[2]. ومن كتبه الهامة كتاب **نزهة الأمم في العجائب و الحكم** الذي أفاد إفادة كبيرة خصوصاً في الفصل الثالث.

ب- الموسوعات:

ظهرت الموسوعات كنمط جديد في التأليف وقد ألفت بغرض خدمة كتبة الدواوين لكنها أفادت الباحثين بطريقة غير مباشرة، لتنوع موضوعاتها ومن أهم الموسوعات:

1 - السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص305/ ابن العماد، المصدر السابق، مجلد 9، ص272/ Popper W, History of Egypt, 1382- 1469, California, 1909- 1933./ ابن طولون الصالحي: إعلام الورى ، ص 37./ عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ص 114./ دائرة المعارف، بإدارة محمد أفرام البستاني، ج2، ص 384.

2 - الإيبش (أحمد)- الشهابي (قتيبة): دمشق الشام في نصوص الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1998، ج2، ص717. / المنجد، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين، ص 221.

1. **النويري (أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم القرشي التيمي البكري النـــويري) (ت 732 هـــ / 1332 م)**: أحد الموسوعيين البارزين الذين قدموا معلومات إخبارية هامـــة في مؤلفه الضخم المعروف باسم **نهاية الأرب في فنون الأدب** وهو أشبه بـــدائرة معـــارف واسعة لما وصلت إليه العلوم عند المسلمين في عصره، تحتوي على جميع أنواع المعرفـــة اللازمة لطبقة الكتّاب، وتعد معلوماته موثوقة باعتباره شغل وظائف عديـــدة فـــي الجهـــاز الإداري المملوكي، ويعد كتابه من أشهر الموسوعات التاريخية العلمية، فهو يـــشتمل علـــى ثلاث وثلاثين جزءاً. لذلك فقد وجدت فيه مادة غزيرة وغنية ولكنها إخبارية [1]، عن الحملة الصليبية ومعركة المنصورة، وتحدث عن تولية شجرة الدر ومقتلها.

2. **العمري (شهاب الدين أبي العباس أحمد بـــن يحيـــى ابـــن فـــضل الله) (ت 749 هـــــ / 1349 م)**: نشأ في دمشق، وتولى القضاء فيها، وكتابه السر بمصر نيابة عن والـــده، كـــان إماماً في الأدب والتاريخ والإنشاء والشعر،وكان حجة في معرفة المسالك والممالك وخطوط الأقاليم على اختلاف موضوعاتها، ومن أهم مصنفاته **مسالك الأبصار في ممالك الأمـــصار** في سبع وعشرين مجلداً وهو موسوعة معارف تاريخية وجغرافية للعـــالم الإســـلامي فـــي القرن الثامن الهجري. وقد استفدت منه بشكل كبير في البحث نظراً لكون مـــادة العمـــري موثقة نتيجة المناصب السياسية التي شغلها. ويعد الكتاب دائرة معـــارف واســـعة ضـــمنها التاريخ الذي يبدأ من عصر الهجرة ويمتد حتى سنة (743 هـــ / 1342 م) غير أن الكتاب غير متداول طباعياً وما بين أيدينا أقسام يسيرة منه. وقد استفدت منه كثيراً فـــي الجانـــب التاريخي[2]، بالحديث عن جنسيات المماليك، وموظفي البلاط المملوكي.

3. **القلشقندي (شهاب الدين أحمد بن علي) (ت 821 هـــ / 1418 م)**: صـــاحب الموســـوعة الشهيرة **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء** كان له الفضل في توضيح اختصاصات الـــبلاط

---

1 - العسقلاني (ابن حجر): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد جاد الحق، مطبعـــة المـــدني، ط2، 1996، ج1، ص197.

2 - الأعلام، ج8، ص52/ الكتبي، المصدر السابق، ج1، ص157. كما كتب عنه:
Demombynes G, Là Syria A l'époque des mamloukes,Paris pp. III- IV.

السلطاني والحاشية السلطانية، وقد استمد مادته من مصادر عاشها مؤلفوها في ذلك الوقت مما يرفع من شأنه، وصبح الأعشى موسوعة إدارية ضخمة بمثابة دائرة معارف لكل ما يفيد كتّاب عصره وفيه مواد كثيرة مختلفة عن العالم الإسلامي بأواخر القرن الثامن وأوئل التاسع للهجرة، والمعطيات الجغرافية فيه ذات أهمية خاصة، فهو يقدم وصفاً لنواحي مصر والشام على اعتبارهما قاعدة الدولة المملوكية، مولياً اهتماماً خاصاً بنظامها السياسي والإداري، وتحدث عن أعياد أهل الذمة...إلخ [1].

ج- كتب التراجم:

1- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله) (ت 764 هـ / 1362 م): قرأ الحديث وأخذ العلم من كبار العلماء، وألف مؤلفات هامة منها كتابه **الوافي بالوفيات يعد** من أوفى الكتب المؤلفة في الإسلام من تراجم الرجال. ترجم فيه للصحابة، والتابعين، والملوك والأمراء، والقضاة، والقرّاء، والأدباء، والشعراء(الذهبي) إلى غير ذلك فكانت الفائدة منه كبيرة[2].

2- الكتبي (ابن شاكر) (ت 764 هـ / 1362 م): ولد في دمشق، كان فقيراً، ثم تحسنت حاله بممارسة تجارة الكتب التاريخية والأدبية بعد نسخها بخطه الحسن،وكان لجودة الخط ووضوح معاملته وحسنها لمن يتعامل معه في هذه التجارة أثر بالغ في تشجيع شرائها واقتنائها، ومع ذلك لم تبلغ ثقافته اللغوية والنحوية الجودة المطلوبة في المؤرخين في كتابه **فوات الوفيات** وهو مجلدان اشتملا على ترجمة خمسمائة واثنتين وسبعين شخصاً [3].

د- كتب السير:

---

1 - السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص8/ العسقلاني (ابن حجر): أنباء الغمر بأبناء العمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1986، ج7، ص330.

2 - ابن العماد، المصدر السابق، مجلد 3، ص343/ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص176.

3 - ابن العماد، المصدر السابق، ج6، ص203/ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4، ص17.

يمتاز العصر المملوكي بعدد كبير من كتب السير، ولعل الدواقع للتوجه لكتابة السير وجود شخصيات قامت بأعمال هامة، فكان لابد من تسليط الأضواء عليها، وكان التأليف في السير يقوى تبعاً لأهمية الشخصية المؤرخ لها، ولقوة الكاتب ومدى إيمانه بالموضوع الذي يعالجه، أو يضعف لضعف هذه النواحي، والملفت للنظر أن العصر المملوكي امتاز بحظ وفير في كتابة السير أهمها:

1. **ابن عبد الظاهر (محي الدين أبي الفضل) (ت 692 هـ / 1292 م)**: من أهم المؤرخين الذين اعتمدتُ عليهم، كان كاتباً في ديوان الإنشاء بالقاهرة عندما تولى الظاهر بيبرس السلطنة، استمر في مركزه طوال فترة بيبرس وأثناء حكم ابنه،وجزء من حقبة حياة قلاوون وابنه الأشرف خليل ، وقد دون ابن عبد الظاهر عدة سير أهمها **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر** كتبها للظاهر بيبرس، ومما دفع المؤلف إلى تدوين هذه السيرة العصر الذي عاش فيه الظاهر، حيث اشتد النزاع بين المسلمين والفرنجة ولا سيما أن بيبرس كان أول شخصية مملوكية هامة أرست قواعد السلطة إثر الانتصار العظيم في عين جالوت، وأول شخصية مملوكية خطط لاسترداد المعاقل العربية من الصليبيين ونجح في ذلك. كان منهج ابن عبد الظاهر طريقة حولية، فقد جعل الحوادث مرتبة حسب السنوات، فكان يضع كل سنة وتحتها عناوين فرعية تشير إلى طبيعة الحوادث، وجاءت معلوماته على نحو كبير من الأهمية [1]. وكتاب **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور** الذي تحدث فيه عن الملك المنصور قلاوون.

<u>**هـ- المعاجم:**</u>

---

1 – الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص179. / ابن عبد الظاهر(محي الدين): تشريف الأيام العصور في سيرة الملك المنصور، تح مراد كامل، وزارة الثقافة مصر، 1961، ص 76./ الكاتب(الشافع بن علي): حسن المناقب السرية من السيرة الظاهرية، تح عبد العزيز خويطر، الرياض، 1976، ص 101.

نشط العرب في مجال التاريخ، كما نشطوا في مجال الجغرافية والرحلات، واستأثرت بـــلاد الشام باهتمامات الرحالة حتى أنه لم يبقَ أحد منهم إلا وزار الشام، وكتب عنها وكان من أهم الـــذين كتبوا في هذا المجال:

- **ياقوت الحموي (بن عبد الله الحموي) (ت 626 هـ /1282 م)**: سافر وتعلم منذ صغره وكـــان جليلاً له مؤلفات منها **معجم البلدان**، الذي يعد بحق من أهم المصنفات في تراث الأدب الجغرافـــي، كونه زار كل منطقة كتب عنها، ورتب ياقوت الأسماء الواردة على حروف الهجاء، فكان مـــصدراً أساسياً في الأماكن [1].

<u>**و – كتب الرحلة:**</u>

-**ابن بطوطة)(محمد بن عبد الله) (ت 779 هـ/ 1377م)**: وكتابه **تحفـــة النظـــار فـــي غرائـــب الأمصار وعجائب الأسفار** التي كان مؤلفها شاهد عيان عاصر دولة المماليك، وزار مصر فـــي عهد سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، فكانت الإفادة منه كثيرة في جميع فصول البحث.

<u>**ي– كتب الفقه:**</u>

- **ابن الحاج(أبوعبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي) (ت 737هـ/ 1336م)**: وهو مغربـــي الأصل ومن أبرز المؤرخين الذين اهتموا بدراسة المماليك من الناحية الاجتماعيـــة، ويعـــد كتابـــه **المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات** من أفضل كتبه وهو في أربعة أجزاء ، وقد كانت الإفادة منه في جميع أجزاء الرسالة، ففي هذا الكتاب نقد للعادات الاجتماعية السائدة في الدولة المملوكيـــة، ويعد هذا المصدر فريداً من نوعه لأهميته الكبيرة.

<u>**ز –المراجع:**</u>

---

1 – ابن خلكان (أحمد بن محمد): وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، م6، س127.

من الممكن أن نضيف إلى قائمة المصادر أسماء بعض المراجع التي أفادت البحث،وأهمها: كتاب **عصر المماليك في مصر وبلاد الشام** للمؤرخ سعيد عاشور، ومن كتبه التي أفادت موضوعات مختلفة من البحث: **بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى**، وكتاب **المجتمع المصري**،وكتاب **صور مجتمع القاهرة في العصور الوسطى**.

وهناك أيضاً قاسم عبدو قاسم الذي اهتم كثيراً في دراسة الحياة الاجتماعية للمماليك، ومن كتبه التي أفادت منها كلُ فصول البحث: **بعض مظاهر الحياة اليومية** ،**وأهل الذمة** ،**وعصر سلاطين المماليك** ،**واليهود في مصر**، هذه الكتب وضحت بشكل كبير الوضع الاجتماعي للمماليك إضافة إلى دراسة الأعياد.

ومن أهم المراجع الأجنبية التي اعتمدها البحث

Catherine Mayeur Joauen, gens de la maison et mouleds d'Egypte.

وفيه إبراز لخصوصية الاحتفال بالمولد .

وهناك مؤرخون كثر أفدت منهم ونقلت عنهم ، وقد أشرت إليهم في الحواشي، واكتفيت في هذه المقدمة بذكر المشاهير منهم الذين كتبوا عن الاحتفالات وممن وصلتنا كتاباتهم، كما استعنت بعدد كبير من المراجع، إضافة إلى معلومات متفرقة من كتب أجنبية أشرت إليها في الحاشية.

أخيراً يجب التنويه إلى أنه على الرغم من كثرة المصادر وغناها بالمواد الإخبارية نجد أن ما يتعلق في موضوع البحث كان قليلاً،ولذلك وجدت صعوبة كبيرة في توظيف هذه الحوادث لخدمة الموضوع، وكان للأستاذ الدكتور المشرف الفضل الكبير في إفادتي لاستخلاص النتائج وتحليلها، وتوظيفها لصالح البحث .

المدخل

لمحة تاريخية عن

المماليك

مقدمة:

يعد عصر المماليك من أهم عصور مصر وبلاد الشام الإسلامية، سواء من حيث التاريخ السياسي أو من حيث الازدهار الحضاري، وعلى الرغم من أن سلاطين المماليك كانوا غرباء لكنهم استطاعوا تحقيق السيادة والاستقلال للبلاد المصرية والشامية.

تميز عصر سلاطين المماليك بسمات حضارية معينة ميزته عن العصور التاريخية الأخرى، خاصة منها على الصعيدين السياسي والاجتماعي، ويعود ذلك إلى الأصل الأجنبي للمماليك الذين يعدون من العبيد الغرباء عن دولة الإسلام،وعن حضارتها، وعن تقاليدها.

إن القصد من دراسة هذا الفصل ليست دراسة السلطنة المملوكية ومؤسساتها بشكل مفصل؛لأنَّ هذا يخرج عن دراسة البحث بشكل كامل، إنما الغرض منه إعطاء لمحة عن الدولة المملوكية في جميع نواحيها.

أولاً- أصل المماليك:

لا بدّ من التعرف على معنى كلمة مملوك،والمملوك جمعه مماليك مشتق من الفعل العربي ((مَلَكَ)) [1] والمملوك من سُبِي ومُلك دون أبويه. إن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم حيث وردت عبارات ((ملكت أيمانكم)) و ((ملكت أيمانهم)) و ((ملكت يمينك)) أكثر من مرة [2].

ثم أخذت هذه الكلمة مدلولاً اصطلاحياً يقصد به جميع الرقيق الأبيض الذين يصبحون رقيقاً نتيجة الأسر أو الشراء من التجار [3]، والمملوك عكس العبد، فالعبد يولد من الرقيق، بينما المملوك يولد من أبوين حرين كما أن العبد أسود بينما المملوك غالباً أبيض [1].

1- ابن منظور- (جمال الدين محمد): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط6، 1997، ج1، ص393./ العبادي (أحمد مختار): قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت، 1969، ص11.

2- القرآن الكريم، سورة النساء، آيات (3، 24، 25، 36)، سورة النحل، آية 71، سورة النور، آيات (31، 33، 58)، سورة الروم، آية 28، سورة الأحزاب، آية 50./ اسماعيل (شفيق): حقيقة المماليك، دمشق، ط1، 2001، ص13.

3- عاشور (سعيد): العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو مصرية، ط3، 1994، ص7.

شاع استخدام المماليك في بلاد العرب العالم الإسلامي في كثير من أرجاء الدولة الإسلامية نتيجة ضعف الدولة من جهة، ورغبتهم بالاستقلال عن الخلافة ، وكثرة المنازعات والحروب فيما بينهم من جهة أخرى [2].

وقد كانت القاهرة غنية بأسواق الرقيق [3]، ولما انتقلت السلطنة إلى الأيوبيين 567 هـ / 1171 م ساروا على نفس الطريق الذي سار عليه أسلافهم من شراء المماليك، وبنوا لهم ثكنات خاصة بهم [4]، والغالبية العظمى من المماليك من منطقة القبجاق [5]، ثم أصبح يُؤتى بهم من منطقة القفقاس[6]. هذا التحول من منطقة القبجاق إلى منطقة القفقاس كان له عدة أسباب أهمها:

1- الحروب الداخلية بين أمراء القبجاق.

2- تناقص عددهم نتيجة غزو تيمور لهم.

3- تناقص الشباب بسبب الاستيراد الكبير وبشكل مستمر إلى السلطنة المملوكية.

4- زيادة نسبة عدد النساء نتيجة تناقص عدد اليافعين.

5- فقدان أسر بكاملها نتيجة لحاقهم بالرجال.

لم تشر المصادر إلى تاجر من تجار المماليك باسمه، إلا إذا جاء بمملوك كان له دور كبير في الدولة[7] وأشهرهم فخر الدين بن عثمان بن مسافر تاجر السلطان برقوق[8]. وكان إذا وصل

1- ماجد (عبد المنعم): نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، القاهرة، 1982، ص22./ اسماعيل (شفيق): المرجع السابق، ص15- 16.

2- عاشور (سعيد): العصر المماليكي، ص10.

3- المقريزي(أحمد بن علي): المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقريزية، بيروت، دار صادر،1950 ج2، ص375./ النباهين (علي سالم): نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر، ط1، 1981، ص93- 95.

4- طقوش (محمد سهيل): تاريخ المماليك في مصر والشام، دار النفائس، 1997، ج1، ص10/ الأصفهاني (عماد الدين): الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة، د. ت، ص358- 359/ رافق (عبد الكريم): بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون، دمشق، ط2، د. ت، ص14.

5 - القبجاق: منطقة السهوب جنوب روسيا.

6- شبارو (عصام): المماليك والسلاطين في الشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري، بيروت، دار النهضة العربية، 1994، ص7.

7- ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992، ط1، ج6، ص322.

8- السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ص10- 11/ المقريزي: الخطط، ج3، ص391.

تاجر المماليك إلى القاهرة لقي أنواعاً من الحفاوة من السلطان، ويشير القلقشندي إلى مسامحة التجار الخواجكية بما يلزم من المكوس والمقررات السلطانية عن نظير ثمن ما يباع منهم من المماليك [1]. وأيضاً لم تشر المصادر إلى أثمان المماليك سوى الذين ارتقوا في الجيش مثلاً قلاوون الألفي؛لأنه دُفع من ثمنه ألف دينار [2].

بعد التعريف بالمماليك وبسبب تسميتهم، ومن أين جاؤوا لا بدّ من الانتقال إلى مرحلة أخرى من حياتهم، فمن المعروف أن العصر الذي أعقب وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة 589 هـ / 1193 م، شهد ازدياد أعداد المماليك في مصر والشام بصورة كبيرة، كما أن ورثته (أبناءه، أخوته، أبناء أخوته) اقتسموا فيما بينهم دولته الواسعة [3].

لم يلبث الشقاق،والخلاف أن دب بين ورثته، فقامت الحروب بينهم، فعمد كل أمير إلى أن يصنع قوة خاصة به، فأكثروا من شراء المماليك وكوّنوا عصبية خاصة بهم، وأصبحوا قوة مسموعة، لكن يجب التنويه إلى أن هؤلاء المماليك ظلوا تحت سيطرة الأيوبيين، ولم يتمردوا عليهم في تلك المرحلة ؛لأنّ الأيوبيين كانوا أقوياء،ولكن عندما بدأ الضعف يدب بينهم، أخذ نفوذهم يزداد حتى شكلوا دولاً [4].

أخذ المماليك بالاعتداء على أموال الناس [5]، مع أنهم وقفوا موقفاً عظيماً في وجه الصليبيين والتتار،ولكن استيلاءهم على بيت المقدس سنة (642 هـ / 1244 م) استثار الغرب فجهزوا حملة بقيادة لويس التاسع قاصداً مصر، فاستولى على دمياط سنة (647 هـ / 1249 م)،

1- القلقشندي(أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الانشاء، تح محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1987، ج4، ص138/ المصدر السابق، ج3، ص38- 40.

2- ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج7، ص325/ القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص435.

3- الأصفهاني: المصدر السابق، ص358/ أبو شامة (شهاب الدين بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم القدسي الدمشقي): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق ابراهيم زيبق، ط1، 1997، ج3، ص366- 295/ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1957، ج2، ص375.

4- عاشور (سعيد): العصر المماليكي، ص11.

5- ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ص266.

في هذه الأثناء كان الصالح أيوب مريضاً، فذهب إلى المنصورة لينظم شؤون الدفاع، لكنــه تــوفي سنة 647 هــ / 1249م [1].

كان للصالح أيوب ولد واحد هو توران شاه،وكان نائباً له في حصن كيفا وهو شــاب عــديم الخبرة[2]. لكن الظروف شاءت أن يخرج من بين حريمه امرأة قوية تمثلـت بـشجرة الــدر التــي تصرفت خلال وفاته تصرفاً حكيماً ، فقد أخفت نبأ وفاتــه، وعملــت علــى اســتدعاء توران شاه، واستمرت المناشير تخرج من غرفته وعليها ختم السلطان،وبقيت الأوضاع كما لو كان حيــاً لكــن رغم ذلك وصل نبأ وفاته إلى لويس الذي اتجه إلى المنصورة وهناك التقــى الطرفــان، واســتطاع المماليك أن يحولوا انتصار الصليبيين إلى هزيمة،وأسروا أعداداً كبيرة منهم كان من بيــنهم لــويس التاسع الذي قيّد مكبلاً إلى المنصورة [3].

وصل توران شاه إلى مصر 648 هــ / 1250م بعد موقعة المنصورة مباشرة، وأعلن نفــسه سلطاناً،ولكنه لم يكن رجل الساعة،وكان سيئ التدبير والسلوك،فبدلاً من الاعتراف بالجميــل الــذي قدمه المماليك له كونهم حفظوا له السلطنة، أخذ يعمل ضدهم. وتروي المصادر أنه كــان يــشرب الخمر ويضرب الشموع المصفوفة أمامه واحدة بعد الأخرى حتى تنقطع، وهو يردد هكــذا ســأفعل بالمماليك ويسمي كل واحد من المماليك باسمه [4]. كما أنه اتهم زوج أبيه أنها أخفت ثــروة والــده، وقام بتوزيع الإقطاعات على أصحابه ممن جلبهم معه [5].

1- كرد علي (محمد): خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، 1983، ج6، ص89/ المقريزي: السلوك، ج1، ص34. سيمينوفا (ل): صلاح الدين (المماليك في مصر)، ترجمة حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة، 1998، ص34/ J.oinvill, the life of saint Louis, transl by M.R.B.Shaw, penguin 1975, p197-206

2- ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص364/ حصن كيفا: مدينة من مدن الجزيرة الفراتية قائمة على الشاطئ الأيمن لنهر دجلة، للمزيد الحموي (ياقوت): البلدان، تحقيق فريد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج4، ص306.

3- الذهبي (الحفظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، 1998، ص49/ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأرب في فنون الإسلام، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، مراجعة محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية للكتاب، 1993، ج29، ص355- 359.

4- ابن العماد، شذرات الذهب، ص417/ الصفدي، الوافي بالوفيات، ص445.

5- أبو الفداء (اسماعيل بن عمر): المختصر فــي أخبــار البــشر، دار الكتــاب، بيــروت، ج1، ج3، ص180/ المقريزي(أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه أحمد مصطفى زيادة، مطبعة التأليف، مــصر، ط1،

حاول المماليك التخلص منه، وذلك بتحريض شجرة الدر، فحاصروه في المدينة التي يقيم فيها،فالتجأ إلى كشك خشبي فأشعلوا فيه النار، فألقى بنفسه في النيل، وقد أشعلت النار في ثيابه ولاحقوه بالنشاب وصار يصرخ لا أريد ملكاً، أريد فقط الذهاب إلى كيفا، لكن أحداً لم ينجده فقتل جريحاً وغريقاً ومحترقاً، وتركت جثته في العراء ثلاثة أيام حتى شفع له رسول الخليفة العباسي، ووري في التراب، وبمقتل تورانشاه انتهى حكم الأيوبيين في مصر [1]

1- المماليك البحرية وأهم ملوكهم [2]:

أصبح المماليك بعد مقتل تورانشاه، أصحاب الحل والعقد، كما وجد على الساحة السياسية، الملوك الأيوبيين في الشام، وقد استاؤوا من إقدام المماليك على قتل أحد ملوكهم، ومن الطبيعي أن يرى كل منهم في نفسه الشرعية حتى يلي السلطنة بعد تورانشاه. قرر المماليك حل المشكلة لصالحهم فاختاروا شجرة الدر لتولي السلطنة،

كانت شجرة الدر جارية من أصل أرمني، اشتراها الصالح أيوب فأعتقها ثم تزوجها، فهي من حيث الأصل والنشأة أقرب للمماليك لذلك عدها المقريزي أولى سلاطين المماليك [3]. تولت

1958 ج1، ص358- 360/ النويري: المصدر السابق، ص361. / Runciman;A History of the crusades, 3 vols, Cambridge, 1957, p 373.

1- العمري(شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث،ط1 ،1986 ص51/ ابن العماد: المصدر السابق، ص417/ ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون): ديوان لمبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، ط1، 1980، ج5، ص417/ الأنصاري (رؤوف): عمارة المساجد، دار الينبوع للطباعة، د. ت، ط1، ص143/ ابن عبد الظاهر (محي الدين): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط2، 1976، ص48- 50/ العيني (بدر الدين محمود): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد أمين، 1985، ج1، ص26- 27/ ابن دقماق(ابراهيم ابن محمد): الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تح سعيد عاشور، مركز البحث العلمي ، السعودية، ص248\ Wiet.G; L. Egypte Arabe, Paris, 1937, p382

2- سموا بالبحرية فمنهم من يقول لأن الصالح أيوب اختار لهم جزيرة الروضة عند النيل. ومنهم من يقول إن تلك التسمية مصدرها أن أولئك كانوا يجلبون عن طريق البحر.

3- المقريزي: السلوك، ج1، ص361. وقد ذكرت في بعض المصادرب(شجر الدر) وبعضها ب(شجرة الدر)الذي استعملته في الاطروحة.

السلطنة شجرة الدر 648 هـ / 1250 م [1]عرفت شجرة الدر بالمستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الخليل، أم المؤمنين [2]، وكانت المراسيم تخرج باسم المستعصمية الصالحية [3].

لم يكن يذكر اسمها أبداً بل كانت تنسب إلى زوجها أو ابنها، لكن الأمراء في دمشق لم يعترفوا بها، والخليفة العباسي أرسل كتاباً إلى مصر كتب عليه عبارته المشهورة: ((*إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نبعث إليكم رجلاً*)) [4]. هذه الأمور مجتمعة دفعت شجرة الدر إلى خلع نفسها والزواج من أيبك أحد المماليك الصالحية.

كان أيبك [5]من مماليك الصالح؛ أتابك الجيش [6]لم يكن حكمه مستقراً، فقد واجه مجموعة من الأخطار الداخلية والخارجية، فالأيوبيون في الشام، والبحرية الذين عزّ عليهم أن يستلم السلطنة من غير البحرية، فعملوا على الكيد له، لكن وصول خطر التتار أدى إلى وقوفهم معه، كما اعترف الخليفة العباسي بشرعية أيبك حيث جعل مصر وفلسطين لأيبك وبقية بلاد الشام للأيوبيين [7].

1- هناك ثلاثة آراء تتعلق بنهاية الدولة الأيوبية في مصر وبداية دولة المماليك البحرية، الأول: يرى أصحاب هذا الرأي أن تورانشاه هو آخر الملوك الأيوبيين وشجر الدر هي أولى سلاطين المماليك، للمزيد المقريزي: السلوك، ج1، ص361/ النويري: المصدر السابق، ج29، ص392. الثاني: يرى أن شجر الدر هي آخر سلاطين الأيوبيين باعتبارها زوج الصالح أيوب للمزيد المنصوري (بيبرس): التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشره عبد الحميد صالح حمدان، الدار العربية، القاهرة، ط1، د. ت. /العيني: المصدر السابق، ج1، ص34/ ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق1، ص286. الثالث: يرى أن الملك الأشرف موسى الذي نصبه أيبك هو آخر الأيوبيين (الأشرف هو موسى بن يوسف بن مسعود بن الكامل) عاش والده في كنف الصالح أيوب حتى توفي. للمزيد المقريزي: السلوك، ج1، ص369/ القرماني (أبو العباس أحمد حلبي الدمشقي القرماني): أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق محمد أمين، بغداد، 1272 هـ، ص65.

Historiens orientaux des croisades. 5 Tomes Paris, 1872- 1906. p42

2- ابن تغري بردي، المصدر السابق، ص374.

3- المقريزي: السلوك، ص362/ حتي، فيليب، جرجي (ادوارد): تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ط8، 1990، ص363.

4- ابن إياس: المصدر السابق، ص374/ المقريزي: السلوك، ص363.

5- أيبك كان تركياً: أي = قمر + بك = أمير، أيبك هو السلطان المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركي الصالحاني، للمزيد ابن إياس: المصدر السابق، ص289/

Becher G., Le Ghashija, comme embléme dela Royant'c, Palermo. 1910, p. 8

المنصوري، المصدر السابق، ص35.

6- أتابك: كلمة تركية مؤلفة من مقطعين أتابك تعني الأب، بك الأمير ومعناها أصبح قائد الجيش.

7- سليم (محمود رزق): عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي مصر ط2، 1962، ص23.

لم يلبث أيبك أن سئم الحياة مع زوجه، وخشي على نفسه من غدرها وتفاقمت الخلافات بينهما مع مرور الوقت خاصة عندما علمت أن زوجها عزم على الزواج من ابنة الأتابك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل [1]. شكلت هذه القضية بداية النهاية لعهد أيبك.

كانت شجرة الدر لا تزال تحظى بعطف المماليك فأخذت تكاتبهم، وعلم أيبك بذلك، فعزم على التخلص منها، لكنها كانت السباقة، فأرسلت تستلطفه وتسترضيه فخُدع أيبك بكلامها، وحضر إليها ومكث عندها، وعندما دخل الحمام قام خمسة من الغلمان عليه فقتلوه، فأشاعت أن المعز أيبك مات فجأة في الحمام أثناء الليل [2]. عندما شاع الخبر حاول المماليك المعزية قتل شجرة الدر لكن البحرية أنقذوها غيران زوج أيبك الأولى (أم علي) أخذت تحرض على قتلها وأمرت جواريها بقتلها وضربها بالقباقيب إلى أن ماتت، ثم أُلقيت جثتها من سور القلعة إلى الخندق وهي شبه عارية، وبقيت في الخندق ثلاثة أيام قبل أن تدفن [3]. على هذا الشكل المحزن انتهت حياة كل من أيبك وشجرة الدر.

ومن أهم الأعمال العسكرية في مرحلة المماليك البحرية معركة عين جالوت [4]658 هـ / 1260 م وفيها انتصر المماليك بقيادة قطز [5] على التتار ودخلوا دمشق، واستولى قطز على سائر البلاد من الفرات إلى حدود النيل، واستناب نوابه على دمشق وحلب وحماه والساحل وغزة.
وموقعة عين جالوت وصفها أبو الفداء قائلا: ((تضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم، فإن القلوب قد يئست من النصر على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الشام، ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا عسكر إلا هزموه)) [6] .

كما أعادوا إحياء الخلافة العباسية ليضفوا على حكمهم الشرعية وذلك عندما قام بيبرس باستدعاء أحد أبناء العباسيين سنة 659 هـ / 1260 م، وعقد مجلساً حافلاً أثبت فيه نسبه وأعلنه خليفة، ولكن بلا خلافة حقيقية. فلم يكن له ولا لمن جاء بعده أي دور يذكر [1].

1- المنصوري، المصدر السابق، ص39/ النويري، المصدر السابق، ج29، ص456/ العيني:، المصدر السابق، ج1، ص140.

2- ابن تغري بردي،المصدر السابق، ج6، ص375.

3- العبادي، المرجع السابق، ص140/ النويري، المصدر السابق، ج29، ص457.

4- عين جالوت: بلدة لطيفة في بيسان من أعمال فلسطين، للمزيد الحموي: المصدر السابق، ص200.

5- للمزيد ابن إياس،: المصدر السابق، ص313.

6- أبو الفداء، المصدر السابق، 44.

كان للمماليك البحرية نشاط ملحوظ في البحر المتوسط حيث تمّ في عهد الناصر فتح جزيرة أرواد سنة 702 هـــ / 1302 م كما انتصروا في العام نفسه في وقعة شقجب على التتار[2].

وفي داخل البلاد أخمدت ثورات العربان في صعيد مصر، وأُخضع ملوك النوبة المسيحية لشمال السودان [3].

سأكتفي بهذا العرض عن المماليك البحرية؛ لأني أردت فقط إعطاء صورة واضحة عن البحرية، وليس الخوض في تفاصيلها، كما قمت بعرض أسماء السلاطين البحرية ضمن الجدول رقم [1].

2- المماليك البرجية وأهم ملوكهم:

أراد السلطان المنصور قلاوون أن يكوّن فرقة جديدة من المماليك، يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار الأمراء، وتكون سنداً له ولأولاده وذريته في الاحتفاظ بالعرش، ومن أجل تحقيق ذلك رأى قلاوون أن تكون فرقته الجديدة من جنس غير الأجناس التي انتمى إليها مماليك عصره، فأعرض عن شراء الأتراك والتتار والتركمان، وأقبل على شراء الجراكسة الذين ينتمون إلى بلاد الكرج ((جورجيا)) واعتنى بتربيتهم في أبراج القلعة، مما جعل اسم ((البرجية)) يلصق بهم في التاريخ [4]. وقد تحقق الغرض منها، فكانت سنداً له ولأولاده، لكن بعد وفاة المنصور قلاوون أخذ يزداد نفوذ البرجية كثيراً؛ لأن قلاوون فرض عليهم في زمانه قيوداً استطاع من خلالها الحد من نفوذهم حيث

1- Robert Hillenbrand Isamic Art and Architecure, 1991, thamas and Husdson LTd, London, printed in Slovenia, p. 13.

2- المطوي (محمد العروسي): السلطنة الحفيقية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص194/ شقجب وأرواد، للمزيد ابن كثير ، المصدر السابق، ص11. /الناصر هو الناصر محمد بن قلاوون، للمزيد ابن إياس: المصدر السابق، ص378.

3- سلام (محمد زغلول): الأدب في العصر المملوكي في مصر، دار المعارف، 1978، ج1، ص25.

4- المقريزي، السلوك، ج1، ص755/ قاسم (قاسم)- علي (علي): الأيوبيين والمماليك، العين للدراسات، ط2، 1996،ص203.

منعهم من التجول نهاراً، بينما خلفاؤه لم يكونوا بمثل قوته، فسمحوا لهم بالنزول إلى الشارع أثناء النهار، وسمحوا لهم التعرف على وقائع الحياة اليومية والمشكلات [1].

لا شك أن إسراف السلطان المنصور قلاوون في معاملة المماليك الجراكسة وتميزه في المساواة بينهم وبين المماليك القدامى، كان له أثره في إثارة روح البغضاء والتنافر بين الطرفين، وتطور إلى نزاع بين الجراكسة والأتراك، وتطورت مناصبهم حتى وصل أحدهم وهو الأمير برقوق الذي استطاع بفضل طموحه وقوته أن يصل إلى منصب أتابك العسكر سنة 780 هـ / 1378 م.

في عهد السلطان علاء الدين علي 778- 783 هـ / 1376- 1381 م الذي لم يتجاوز الست سنوات، وبعد وفاته كان بإمكان برقوق استلام العرش، لكنه تظاهر بالزهد، فجمع الخليفة والقضاة، وكبار الأمراء، وقال بضرورة بقاء العرش في بيت قلاوون، فاستدعى أمير حاجي حفيد الناصر محمد، وكان عمره وقتذاك إحدى عشرة سنة، وأعلن سلطاناً سنة 783 هـ / 1381 م.

أخذ برقوق يمكّن لنفسه، ويوزع الإقطاعات على أعوانه، ويتخلص من معارضيه، وعندما تهيأت الأوضاع أعلن حاجة البلاد إلى رجل قوي، فأعلن الأمراء برقوق سلطاناً، وتلقب بلقب الظاهر، وعزل أمير حاجي من السلطنة. هكذا انتهى بيت قلاوون كما انتهى حكم المماليك البحرية، وبقيام الظاهر برقوق بالحكم 784 هـ / 1382 م، بدأت دولة المماليك البرجية[2].

قامت دولة المماليك البحرية على أسس خالفت الأسس التي قامت عليها دولة المماليك البرجية، وإن اشتركت معها في بعض اتجاهاتها، ويتضح ذلك من الحقائق التالية:

1- تميزت دولة المماليك البرجية بأن سلاطينها جميعاً من أصل جركسي باستثناء اثنين كانا من أصل يوناني هما خشقدم وتمربغا، ومعنى ذلك أن حكام هذه الدولة اتخذوا العصبية العنصرية سلاحاً لإزالة دولة المماليك البحرية[3].

2- جعل العرش المملوكي مشاعاً بين القادرين من أمراء المماليك.

3- تدبير المؤامرات، وإحداث الفتن للوصول إلى الحكم[1].

1- علي (علي)، قاسم (قاسم): المرجع السابق، ص205.

2 - زيتون (عادل): تاريخ المماليك، منشورات دمشق، ط5، 1996، ص70.

3 - ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج16، ص253/ اعتلى الملك الظاهر خشقدم عرش السلطنة سنة 865 هـ وهو الأول من الأورام بعد أن تسلطن من الجراكسة وأولادهم ثلاثة عشر سلطاناً، وقد حكم ست سنين وست أشهر واثنين وعشرين يوماً مات سنة 872 هـ. أما تمربغا فقد تولى الحكم سنة 872 هـ.

4- عمل سلاطين المماليك البرجية على حصر هذه المنازعات في دائرة داخلية ضيقة لم يمكنوا قوة خارجية من التدخل في شؤون البلاد.

5- عنايتهم بالأدب والعلم.

6- عدم الالتفات إلى رغبات السكان في شؤون السلطنة من حيث إخبار السلطان وتعيينه [2].

7- ضرورة الحصول على موافقة الخليفة والقضاء على تعيين السلطان لتسويغ الأسلوب الذي سلكه لتحقيق هدفه في الوصول إلى الحكم.

أيضاً بالنسبة للمماليك البرجية أكتفي بهذا العرض عن نشوئهم وميزاتهم، أما بالنسبة لملوكهم فقد قمت بعرضهم مع سنة توليتهم السلطنة والانتهاء منها ضمن الجدول رقم [2].

بلغ عدد سلاطين هذه الدولة المملوكية خمس وعشرين سلطاناً، وبلغ عمرها نحو 134 سنة، على حين عمرت الدولة البحرية 132 سنة. فالدولتان متقاربتان في العصر الزمني، ولكل منها تراثه وآثاره.

ثانياً- موظفو البلاط المملوكي:

1- السلطان: صاحب أعلى سلطة، وكان يلقب بألقاب عدة [3]، وهو دائماً على رأس الجيش الذاهب للحرب [4].

2- نائب السلطنة: السلطان الثاني في الدولة، صلاحياته واسعة، وبإمكانه أن يستخدم الجند دون مشورة السلطان ويستطيع إصدار المراسيم، وقد تعرض هذا المنصب للتقهقر عندما استلم الناصر محمد بن قلاوون [5]. أما النواب في الأقاليم فكانوا يملكون صلاحيات واسعة،ويشرفون

1-عاشور، العصر المماليكي، ص153.

2- طرخان (ابراهيم علي): مصر في دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1960، ص13.

3- هذه الألقاب منها ذات طابع ديني أو سياسي، هدفت إلى تمجيده وتأكيد سلطانه منها سلطان الإسلام والمسلمين، ناصر الأمة المحمدية، هازم الفرنج، الخ. هذا إضافة إلى الألقاب الشخصية مثل الناصر- الظاهر- الخ، للمزيد العمري: المصدر السابق، ص45 وما بعد/ الخطيب (ابراهيم): تاريخ المغول والمماليك، دار شيرين، عمان، 1993، ص97

4 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص35.

5 - العمري: المصدر السابق، ص16/ حمادة (محمد ماهر): الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، مؤسسة الرسالة، ط2، 1983، ص29

على شؤون الجيش والمال والبريد، ويعرضون على السلطان من يصلح في الوزارة والقضاء والجيش...الخ. وقلّما رفض السلطان عرضهم [1].

3- الوزارة: هي في المرتبة الثالثة مهمتها تدبير جملة من الأمور، وتعيين المباشرين، وكاتب السر، والتوقيع في دار العدل. لكن عليهم مشورة السلطان وعدم الاستقلال بشيء [2].

4- إمرة السلاح: صاحبها مهمته حمل السلاح في المجامع الجامعة [3].

5- الدوادارية: ماسك الدواة، مهمته تبليغ الرسائل من السلطان، والإبلاغ عن عامة الأمور وتقديم البريد، وأخذ خط السلطان على عموم المناشير والكتب [4].

6- الأستاذدار: يوكل إليه أمر جميع البيوت الخاصة بالسلطان كلها.

7- إمرة جاندار: صاحبها كالمتسلم للباب، وهو يقدم البريد، وإذا أراد السلطان قتل أحد كان على يد صاحب هذه الوظيفة [5].

8- نقابة الجيوش: يكون كأحد الحجاب الصغار، فإذا طلب السلطان أو النائب أو الحاجب أميراً كانت مهمته أن يرسل إليه ويحضره.

9- الولاة: أصحابها هم أصحاب الشرطة [6]، وجميع أصحاب هذه الوظائف هم أصحاب الطبقات أو ذوي السيوف الذين يتولوها [7].

10- كاتب السر: أي قراءة الكتب الواردة إلى السلطان، أو كتابة أجوبتها، وأخذ خط السلطان عليها بدار العدل لقراءة قصص الناس، أو التوقيع عليها [8].

11- نظر الحبس: له صلاحيات النظر في الإقطاعات وكتابة المراسيم [9].

---

1 - العمري:، المصدر السابق، ص115.

2 - المصدر السابق، ص119/ حمادة (محمد ماهر): المرجع السابق، ص34.

3 - العمري، المصدر السابق، ص118.

4 - السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): حسن المحاضرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، م2، ص132.

5 - العمري، المصدر السابق، ص118.

6 - المصدر السابق، ص119.

7 - المصدر السابق، ص114.

8 - المصدر السابق، ص120.

9 - المصدر السابق، ص131.

12- نظر الخزانة: وظيفة كبيرة الشأن، ففي الخزانة مستودع أموال المملكة.

13- نظر البيوت: وظيفة جليلة وهي مرتبطة بالأستاذ دارية [1].

14- نظر بيت المال: وهو ممول المملكة إلى بيت المال.

15- نظر الإسطبلات: يباشر في إسطبل السلطان وله الحديث في أنواع الإسطبلات وكل ما يباع أو يُبتاع [2]، وجميع هذه الوظائف من ذوي الأقلام [3].

وهناك وظائف أخرى هي القضاء، والخطابة، ووكالة بيت المال، والحسبة، وهذه الوظائف معروفة ويتولاها الناس من الطبقة الثالثة من طبقات المجتمع ((ذوي العلم)) [4].

ثالثاً_ الحياة الاقتصادية:

كانت الأوضاع الاقتصادية تتغيّر بين الحين والآخر، خاصة في النصف الأول من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، حيث أصاب البلاد انهيار إداري، واقتصادي، ومن أهم أسبابه الرشوة وارتفاع الأسعار واضطراب النقد [5].

1- الزراعة:

اهتم السلاطين بالزراعة باعتبارها أساس الحياة الاقتصادية، فاعتنوا بها وأقاموا لأجلها الإصلاحات العديدة من بناء سدود وجسور [6]ز ،وقد ازدهرت الزراعة لأسباب بشرية واقتصادية

---

1 - المصدر السابق، ص121.

2 - المصدر السابق، ص122.

3 - المصدر السابق، ص114.

4 - المصدر السابق، ص122.

5 - المقريزي(أحمد بن علي): إغاثة الأمة بكشف الغمة، تعليق ياسر سيد الصالحين ، مكتبة الآداب القاهرة، د.ت ص64- 67.

6 - المقريزي،لخطط، ج2، ص166.

كاهتمام السلاطين بالجسور والإصلاح.أما الطبيعية فتمثلت بتمتع البلاد بخيرات كثيرة منهـا تـوفر المياه،والهواء المناسب من المتوسط والبحر الأحمر.

إن قوام الحياة الاقتصادية الزراعة، والدارس في هذا المجال يجد أن الدولـة هـي المالـك الأكبر وعلى عاتقها تقع مسؤولية فتح القنوات، واستصلاح الأراضي وبناء الجسور....الخ[1].

2- الصناعة:

ازدهرت الصناعة في العصر المملوكي نتيجة كثرة الثروات، وتفنن الصناع في الـصناعة والاهتمام بالسلع، وعرضها في الأسواق، وبيعها بأسعار جيدة، وبما أن الدولة المملوكية أساساً دولة عسكرية،فقد واجهت تحديات خارجيـة خطيـرة لـذلك اهـتم المماليـك بالـصناعات العـسكرية والحربية [2].

3- التجارة:

كانت التجارة من أهم المظاهر الأساسية للنشاط الاقتصادي المملوكي، وقد ساعد على ذلـك عدة عوامل:

1- المكان الجغرافي الذي كانت تحتله دولة المماليك في مـصر والـشام،وهذا ماأكـسبها الثـروة والغنى.
2- إغلاق معظم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب منذ القرن السابع الهجـري و الثالـث عشر الميلادي.
3- انعدام الأمن والسلام في تلك الطرق.
4- إنشاء المؤسسات اللازمة للتجارة، والفنادق، والخانات، والأسواق [3].

رابعاً_ الحياة الاجتماعية:

---

1 - زعرور (ابراهيم): الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي، مطبعة الجمهورية، دمشق، 1993، ص 201.

2 - الزيدي(مفيد): التاريخ الاسلامي (العصر المملوكي)دار أسامة، عمان، 2003 ص234.

3- زيتون (عادل): تاريخ المماليك، منشورات دمشق، ط5، 1996 ص193.

كانت بنية المجتمع المملوكي طبقية ، تتألف من عدة طبقات اختلفت طبقاتها في الصفات، والخصائص، والمظاهر،كما اختلفت مكانتها في الدولة والمجتمع وما لها من حقوق وما عليها من واجبات ، واختلاف الرابطة كان واضحاً بين الشام و مصر من حيث الدم والجنس والأصل وحتى اللون، وهذا ماأشعر في حالات كثيرة المماليك أنهم غرباء عن المجتمع أو لا تربطهم به رابطة قوية، ولم تربطهم به رابطة زواج [1].

وقد قسم المجتمع إلى خمس طبقات:

أ- السلطان والمماليك على رأس السلم الاجتماعي؛ وهم أرباب السيوف،وأصحاب المناصب الهامة.

ب- أرباب الأقلام.

ت- العلماء في حقوقهم القضاء،والخطباء.

ث- التجار.

ج- سائر الناس [2].

أما التجار فكانت تتراوح أحوالهم بين حين وآخر حسب ثروتهم، فأحياناً كانوا طبقة مقربة من السلطان؛ لأنهم المصدر الذي يمده بالمال وأحياناً كانت أموالهم تصادر.

وقد عرف المماليك كثرة الأعياد والاحتفالات،وشارك المسلمون والمسيحيون في إحيائها. وهو نهج سار فيه المماليك على خطى الأيوبيين في العناية بالأعياد والمناسبات والمواسم.

خامساً_ الحركة العلمية:

نشطت الحركة العلمية في دمشق أيام دولة المماليك في القرون الثلاثة التي عاشت فيها هذه الدولة، فأوجدت المدارس والخوانق،وكان هذا النشاط في معظمه يحدث على يد سلاطين المماليك الذين شجعوا الحركة العلمية،وهذا ما يظهر من خلال كثرة المدارس والمساجد المشيدة.

آ- أهم عوامل نشاط الحركة العلمية آنذاك:

---

1 - العمري، المصدر السابق، ص114.

2- كيال(منير): رمضان وتقاليده بدمشق، دمشق، ط1، 1974.ص 115./ نعيسة(يوسف): مجتمع مدينة دمشق، دار طلاس، دمشق، ط1، 1986،ج 2،ص 651.

1- وقوع كثير من البلاد الإسلامية في يد التتار، فكان لا بدّ للمسلمين أن يلتفوا حول المدافعين عنهم كسلاطين المماليك، وأن يدعموا حكمهم، ومن أهم وسائل تدعيم الملك هي إحياء العلوم والمعارف[1].

2- قتل العلماء وإحراق الكتب العلمية، فبعد دخول التتار بغداد (656 هـ / 1258) م تمّ قتل وسفك الدماء وإحراق دار الخلافة،مما أدى إلى فرار كثير من العلماء إلى أماكن آمنة.

3- شعور سلاطين المماليك وولاتهم بمسؤوليتهم عن النهوض بالعلم و العلماء الذين قاموا بالعمل الجاد لإدراك ما فات [2].

4- كانت جموع العلماء من الأدباء الذين جاؤوا الشام حاملين معهم كتبهم وعلمهم [3].

5- اهتمام السلاطين باللغة العربية، وذلك لعجز لغتهم التركية أو الجركسية عن أداء ما يتطلبه ملكهم الواسع في المجالات المختلفة [4]

سادساً_ انهيار دولة المماليك:

لم يشهد التاريخ منذ القدم بقاء دولة ما على حال واحدة من العزة والرفعة وإنما تخضع الدول لسنّة الطبيعة ما بين نشأة وشباب ثم الانتقال تدريجياً إلى مرحلة الشيخوخة، فتتحول فيها قوة الدولة إلى ضعف، وتدب في جسدها الأمراض التي تمهد لسقوطها.

وللدولة المملوكية بعض مظاهر التدهور التي أدت إلى أفول العصر المملوكي، وتعود أسباب هذا التدهور إلى عوامل داخلية وأخرى خارجية.

1- العوامل الداخلية:

1 - سليم (محمد رزق): المرجع السابق، ص17.

2 - المرجع السابق، ص18.

3 - سلام (محمد زغلول): المرجع السابق، ص106.

4 - المقريزي، الخطط، ج2، ص382.

أ- تراجع زعامة المماليك في العالم الإسلامي حيث لم يعودوا قادرين على حماية أرواح المسلمين وممتلكاتهم، وعدم قدرتهم على حماية الدين نفسه والمدن الإسلامية المقدسة، وعدم ضمان سلامة الحجاج [1].

ب- الانحلال الاجتماعي والتسول في مصر والشام الذي انتشر بشكل كبير، وفقدان الموارد الغذائية [2].

ت- مظاهر البذخ التي عاشها الحكام والتي شكلت تحدياً صارخاً للفقراء [3].

ث- فساد النظام الإداري وفساد النظام الإقطاعي، إضافة إلى التدهور الاقتصادي [4]،حيث شكل العامل الاقتصادي دعامة أساسية استندت إليها الدولة المملوكية في قيامها واستمرارها، فإذا دخل الضعف إلى هذه الدعامة كان ذلك نذيراً بتداعي الدولة وانهيارها.

ج- انحلال النظام الداخلي، وإهمال الأسس التي قامت عليها دولة المماليك وكثرة المصادرات وفرض الضرائب بكثرة [5].

2- العوامل الخارجية:

تعد العوامل الخارجية من الأسباب التي أدت إلى ضعف وانهيار دولة المماليك، بل ساعدت العوامل الداخلية السالفة الذكر في إضعاف وحدة الدولة أمام العدو الخارجي وعلاقات الشرق والغرب منذ أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، وظلت الروح الصليبية قائمة متجددة وعدو رئيس للمسلمين.

انطلقت حملات عسكرية صليبية لمواجهة المسلمين، قادها البرتغاليون الذين استجابوا لنداء البابوية، ونظموا حملات ضد شمالي إفريقية، ووصلوا رأس الرجاء الصالح سنة 904 هـ / 1498 م ووصلوا الهند، وسيطروا على التجارة الشرقية ووجهت البرتغال ضربة قوية للتجارة المملوكية مع الهند. كانت هذه كارثة على الدولة المملوكية التي قضى عليها البرتغاليون من حيث

---

1 - إيفانوف (نيقولاي): الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، 1988، ص39.

2 - المرجع السابق، ص41.

3 - طقوش، المرجع السابق، ص56/ رافق (عبد الكريم): المرجع السابق، ص23.

4- عاشور (سعيد): بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، 1977، ص351.

5 - طقوش، المرجع السابق، ص564/ رافق، المرجع السابق، ص20.

الثروة والقوة العسكرية، ونجحوا في إنهاء السيطرة المملوكية على المياه والتجارة الشرقية منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي، ثم إن تدهور الوضع الاقتصادي، وفقدان الموارد الحيوية الأساسية زعزع قوة ومكانة الدولة، كما جاءت الضربة القوية على أيدي العثمانيين في عهد السلطان سليم الأول الذي أنهى مكانة المماليك في ((مرج دابق))، وقضى على دولتهم المستقلة في الريدانية، وورث ممتلكاتهم وألقابهم ليصبح حامي الإسلام والمسلمين (1).

هكذا كانت دولة المماليك من الدول المهمة في العصور الوسطى لذلك فإن نشوء هذه الدولة أمر عجيب يكاد أن يكون فريداً في بابه، فالمماليك دولة من جنسيات وقوميات مختلفة جعلوا لأنفسهم طبقة عسكرية حاكمة في بلاد غريبة، وقد أفلح هؤلاء في التصدي للصليبيين وصدّوا إلى الأبد تقدم جيوش المغول، ولولا المماليك لكانت هذه الجيوش قد غيرت مجرى التاريخ والثقافة في غربي آسيا ومصر. وبذلك وفرت هذه الدولة ومهدت للبلاد سبيل النّعيم بثقافة متصلة وأنظمة سياسية مستمرة.

سيطر المماليك على الحكم نحو مئتين وسبعين سنة من 648 هـ/ 1250م حتى سنة (923 هـ/ 1517م على بقعة كانت من أكثر البقاع فتناً واضطراباً، وحافظوا طوال تلك الفترة على ميزاتهم الجنسية مع أنهم كانوا بوجه عام قساة دون ثقافة، وأعمالهم في مصر والشام ما تزال تشهد لهم، فكثرت المساجد والمدارس والحمامات التي بنوها مازالت خالدة تشهد لهم بالتطور العمراني والثقافي الذي وصلوا إليه رغم أنهم كانوا رجال حرب بالدرجة الأولى.

---

1 - سوفاجيه (جان): دمشق الشام، تعريب فؤاد أفرم البستاني، تحقيق أكرم العلبي، ط1، 1989، ص88/ لابيدوس: المرجع السابق، ص86/ رافق، المرجع السابق، ص20/ طقوش، المرجع السابق، ص560/ إيفانوف، المرجع السابق، ص31/ فهمي (نعيم زكي): طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1973، ص371.

سلاطين المماليك [1]

	سنة هجرية	السلطان	سنة ميلادية
1	648	شجر الدر	1250
2	648- 655	المعز عز الدين أيبك	1250- 1257
3	655- 657	المنصور نور الدين علي	1257- 1259
4	657- 658	المظفر سيف الدين قطز	1259- 1260

1 - للمزيد عن السلاطين ابن إياس، المصدر السابق، ج1، ق1، ص219 وما بعد.

ابن تغري بردي، المصدر السابق، من الجزء السابع وما يليه.

زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي حسن، حسن محمود، القاهرة، 1992، ج1، ص60 وما بعد.

5	676 -658	ركن الدين بيبرس البيرقداري	1277 -1260
6	678 -676	السعيد ناصر الدين محمد بركة خان	1279 -1277
7	678	العادل بدر الدين سلامش	1279
8	689 -678	المنصور سيف الدين قلاوون	1290 -1279
9	693 -689	الأشرف صلاح الدين خليل	1293 -1290
10	694 -693	الناصر ناصر الدين محمد (المرة الأولى)	1294 -1293
11	696 -694	العادل زين الدين كتبغا	1296 -1294
12	698 -696	المنصور حسام الدين لاجين	1299 -1296
13	708 -698	الناصر ناصر الدين محمد (المرة الثانية)	1309 -1299
14	709 -708	المظفر بيبرس الجاشنكير	1310 -1309
15	741 -709	الناصر ناصر الدين محمد (المرة الثالثة)	1340 -1310
16	742 -741	المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد	1341 -1340
17	742	الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد	1341
18	743 -742	الناصر شهاب الدبن أحمد بن الناصر محمد	1342
19	746 -743	الصالح عماد الدين اسماعيل بن الناصر محمد	1345 -1342
20	747 -746	الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد	1346 -1345
21	748 -747	المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد	1348 -1346
22	752 -748	الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد (مرة أولى)	1351 -1348
23	755 -752	الصالح صلاح الدين بن محمد بن الناصر محمد	1354 -1351
24	762 -755	الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد (مرة ثانية)	1361 -1354
25	764 -762	المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي	1363 -1361
26	778 -764	الأشرف أبو المعالي زين الدين شعبان بن حسين	1377 -1363
27	783 -778	المنصور علاء الدين علي بن شعبان بن حسين	1381 -1377
28	784 -783	الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان بن حسين	1382 -1381

الجدول (1)

دولة المماليك البحرية

سلاطين المماليك[1]

م	سنة هجرية	السلطان	سنة ميلادية
1	784- 790	الظاهر سيف الدين برقوق (مرة أولى)	1382- 1388
2	790- 792	الصالح حاجي بن شعبان	1388- 1390
3	792- 801	الظاهر سيف الدين برقوق (مرة ثانية)	1390- 1399
4	801- 815	الناصر أبو السعادات فرج بن برقوق	1399- 1412

1 - للمزيد عن السلاطين ابن إياس،المصدر السابق، ج1، ق1، ص219 وما بعد.

ابن تغري بردي، المصدر السابق، من الجزء السابع وما يليه.

زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص60 وما بعد.

5	824 -815	المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	1421 -1412
6	824	المظفر أحمد بن شيخ	1421
7	824	الظاهر سيف الدين ططر	1421
8	825 -824	محمد بن ططر	1422 -1421
9	841 -825	الأشرف برسباي	1438 -1422
10	842 -841	أبو المحاسن يوسف بن برسباي	1438
11	857 -842	الظاهر جقمق	1453 -1438
12	857	المنصور عثمان بن جقمق	1453
13	865 -857	الأشرف إينال	1461 -1453
14	865	المؤيد أحمد بن إينال	1461
15	872 -865	الظاهر خشقدم	1467 -1461
16	872	الظاهر يلبغا المؤيدي	1467
17	872	الظاهر تمربغا	1468
18	901 -872	الأشرف قايتباي	1496 -1468
19	902 -901	محمد بن قايتباي (مرة أولى)	1497 -1496
20	902	الأشرف قانصوه	1497
21	904 -902	محمد بن قايتباي (مرة ثانية)	1498 -1497
22	905 -904	الظاهر قانصوه الأشرفي	1500 -1498
23	906 -905	الأشرف جانبلاط	1501 -1500
24	906	العادل طومان باي الأول	1501
25	922 -906	الأشرف قانصوه الغوري	1516 -1501
26	923 -922	الأشرف طومان باي الثاني	1517 -1516

الجدول (2)

دولة المماليك البرجية

الفصل الأول

الاحتفالات الدينية

((الأعياد))

أولاً- الأعياد الشرعية:

كانت أهم الأعياد الدينية[1] عند المسلمين وأكبرها هما عيدي الفطر والأضحى؛ لأنهما يرتبطان بركنين من أركان الدين الإسلامي، فيرتبط الأول بالصيام في شهر رمضان، ويرتبط الثاني بفريضة الحج إلى بيت الله الحرام ويحتفل المسلمون جميعاً بهما.

---

1 - في اللغة العيد عند العرب هو اليوم الذي فيه الفرح والحزن ، وهو كل يوم فيه جمع، وأصله من العود والاعتياد والعادة، واشتقاقه من عاد يعود، كأنهم عادوا اليه، او من العادة لأنهم اعتادوه وجمعه أعياد، ولقد كان في الأصل العود فلما سكنت الواو وانكسر ماقبلها قلبت ياء. للمزيد: أبادي(الفيروز): القاموس المحيط، بيروت، 1960، ج1، 330./ ابن منظور: المصدر السابق، ج3، ص 318- 319./ الرضا(أحمد): معجم متن اللغة، دمشق، 1980، ج4، ص 237.

ويذكر القلقشندي أنهما العيدين الوحيدين الذين لم تشرع الشريعة الإسلامية غيرهما. بحيث يذكر ((إن الذي وردت به الشريعة وجاءت به السنة عيدان: عيد الفطر وعيد الأضحى)) (1).

أ- ليالي رمضان:

كان سلاطين المماليك وعامة الناس على اختلاف طبقاتهم يحتفلون بحلول شهر رمضان. يبدأ الاحتفال بشهر رمضان بظهور هلال الشهر الجديد، وقد شهد ابن بطوطة الاحتفال بهذه المناسبة ووصفها وصفاً دقيقاً بقوله: وعاداتهم أن يجتمع فقهاء المدينة ووجهائها بعيد الفطر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي، ويقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذو إشارة مهيبة حسنة، فإذا أتى أحد الفقهاء أو أحد الوجوه تلقاه ذلك النقيب،ومشى بين يديه قائلاً: ((*باسم الله سيدنا فلان الدين فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له. ويجلسه في مجلس يليق به فإذا تكاملوا هناك ركبوا جميعاً وتبعهم جميع من في المدينة من الرجال والنساء والصبيان. وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال عندهم، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل القاضي ومن معه، فيرقبون الهلال ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع، والمشاعل والفوانيس ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضي إلى داره ثم ينصرفون وهكذا فعلهم في كل سنة* [2])).

ويذكر ابن الحاج أن هذه الفوانيس والقناديل كانت ملونة ومذهبة مبيناً في ذلك لما كان في عهد المماليك من إضاعة للمال وحب للظهور [3].

إن ملامح ظهور هلال شهر رمضان كانت متقاربة مع اختلاف بسيط [1] وفي ليالي شهر رمضان كانت أسواق المدن والأقاليم تزدهر احتفالاً بهذه المناسبة، وقد كانت المطاعم والمطابخ

---

1 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص416./ مكي(محمد كاظم): المدخل إلى حضارة العصر العباسي، دار الزهراء، بيروت، 1988، ص 110.

2 - ابن بطوطة(محمد بن عبد الله): تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، القاهرة، 1985، ص26- 27.

3 - ابن الحاج(أبو عبد الله محمد بن محمد): المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات، القاهرة، 1929، ج2، ص257.

تظل مفتوحة طوال الليل لكي تستقبل زبائنها [2]. كما كانت تنتعش أسواق الحلويات وأسواق الشماعين، فتصنع التماثيل السكرية التي كانت تعرف باسم العلاليق (علاقة)؛ لأنها كانت تُعلق بخيوط على أبواب الحوانيت [3].

كان سوق الشماعين في ليالي هذا الشهر يتلألأ بأضواء مختلفة من أنواع الشموع، وقد كانت تباع بهذا السوق كميات كبيرة قد تصل إلى عشرة أرطال، أما الشموع الضخمة كانت تصل إلى ما يزيد القنطار، حيث كانت تؤجر لكي تستخدم في موكب صلاة التراويح، وقد كان هذا الموكب يجتمع حوله إحدى الشموع الضخمة يجرها الأولاد على عجلات، وقد أمسك كل منها بفانوسه وهم يرددون أغاني دينية، ويطوف الموكب المضيء البلد من بعد المغرب حتى موعد صلاة العشاء والتراويح [4].

كما تذكر المصادر السحور في ليالي رمضان حيث يطوف (المسحراتي) بطبلته يردد الأغاني وحوله الأطفال منادياً على أصحاب البيوت [5].

ومن عادات شهر رمضان هو الاحتفال بختم القرآن الكريم بأحد المساجد، ويتمثل هذا الاحتفال في اجتماع المؤذنين للتكبير ثم يؤتى بفرس يركبها القارئ الذي تولى ختم القرآن ويذهب في موكب مع التهليل والتكبير [6] ويستنكر ابن الحاج هذه المظاهر من اللهو واللعب في هذه المواسم الدينية المعظمة التي هي مقام للخشوع لا للهو والتكلف.

ومما كان يقوم به سلاطين المماليك في هذه المناسبة التي تعد من المناسبات الكبيرة لديهم، فإذا ما اقترب الشهر قام السلطان بإطلاق سراح المساجين من السجن، كما استغل المماليك ليالي رمضان كفرصة لأعمال البر والإحسان وتقديم المعونة للفقراء والمحتاجين. ويذكر المقريزي أن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري كان (يطعم في كل ليلة من ليالي شهر رمضان خمسة آلاف

---

1 – عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، 1962، ص185.

2 – المرجع السابق، ص185.

3 – المقريزي، الخطط، ج2، ص106.

4 – المقريزي، الخطط، ج2، ص201.

5 – ابن الحاج، المصدر السابق ج2، ص255.

6 – ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص300.

نفس [1]). وكان في أول ليلة من شهر رمضان يرتب بمصر والقاهرة وأعمالها مطابخ يطبخ فيها أنواع الأطعمة وتفرق على الفقراء والمساكين [2].

ويوزع الطعام ضمن حفل حاشد تصاحبه الموسيقى ويقع السير بها في شوارع المدينة (لإشهار أمرها بين الناس) [3]. يرى الناس كرم السلطان ويزداد ولاءهم له.

ويلاحظ هنا ناحية وهي ثراء سلاطين المماليك البحرية من خلال ضخامة الصدقات والخلع التي يقدمها السلاطين في هذه المناسبات الدينية، ومن ناحية ثانية الاعتماد على الإبهار في كل ذلك وهو ما يسعى إليه سلاطين المماليك في إطار الظهور بمظهر حماة الإسلام والاهتمام بكل المناسبات الدينية والإسلامية.

ولم تقتصر الصدقة على المعدمين من العامة بل وصلت إلى الأمراء والعلماء، فيذكر المقريزي أن السلطان الملك الأشرف خليل في رمضان سنة تسعين وستمائة أنعم على علم الدين سنجر المنصوري المعروف بأرجواش خبزاً وخلع عليه وأُعيد إلى ولاية قلعة دمشق [4].

كما كانت تصرف للعلماء والأمراء رواتب إضافية في شهر رمضان وكل ذلك يدخل في إطار تدعيم السلطان لعلاقته مع مماليكه والعلماء والقضاة الذين يمثلون ركيزة قوة السلطان وشرعيته [5].

غير أن هذه العطاءات والتوسعات كانت مرتبطة بخزانة السلطان، فإذا قلّت أموال الدولة انقطع العطاء. ففي رمضان سنة سبع مئة وخمس وأربعين للهجرة في عهد الملك الصالح إسماعيل ابن محمد ونظراً لتوقف أحوال الدولة في كل شيء عجز الوزير عن لجم المعاملين والمماليك، فأمر بقطع رواتب الأمراء والمماليك، وأرباب الوظائف [6].

---

1 – المقريزي، السلوك، ج1، ص639.

2 – ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص203.

3 – محمود سليم رزق، المرجع السابق، ص333.

4 – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص11.

5 – العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص49.

6 – المقريزي، السلوك، ج2، ص671.

كما اهتم المماليك في قراءة الأحاديث الشريفة وكانوا يحتفلون بختم الحديث في الثلث الأخير من شهر رمضان، ويحتفل به احتفالاً كبيراً، ويوزع في نهاية الاحتفال الهدايا والخلع [1].

2- عيد الفطر

عيد الفطر من المناسبات الدينية المهمة عند جميع المسلمين لكن المماليك كان لهم عادات خاصة بهم في الاحتفال بهذا العيد، وكان له آثار سلبية وإيجابية وضحها عدد من المؤرخين.

وقد استعد عامة الناس لهذا العيد منذ الأيام الأخيرة من شهر رمضان وذلك بتحضير أطباق متعددة من الحلوى التي اعتاد الناس على إعدادها. أما في ليلة العيد فيقوم الناس بإعداد ملابس العيد،ويتوجه الرجال مع طلوع النهار لأداء صلاة العيد في موكب كبير وهم يهللون ويكبرون حتى يصلوا إلى المسجد، ثم تتبادل البيوت التهنئة بالعيد ويتبادلون الحلويات،والكعك ،فمنهم من كان يصنعه بنفسه ومنهم من كان يأتي به جاهزاً.

ويَعدُّ ابن الحاج أن هذا التصرف هو عيب على المسلمين؛ لأنهم كانوا يشترون الكعك الذي يصنعه اليهود [2]. لكننا نستطيع أن نعد ذلك أنه مظهر من مظاهر الاندماج الاجتماعي بين السكان. ومن عادات هذا العيد أيضاً أن يخرج الناس لزيارة القبور [3]، ثم يتوجهون إلى التنزه في أماكن النزهة والاصطياف، وكان يصحب ذلك مرح ولهو،وهذا ما كان ابن الحاج يعيبه على الناس كالتوجه إلى اللهو وترك إحياء ليلة العيد بالقرآن، والابتعاد عن الدين لملذات الدنيا. ومن العادات أيضاً استعمالهم السمك المشقوق في هذا اليوم [4].

أما بالنسبة للاحتفالات الرسمية بهذا العيد، فقد اعتاد الأمراء الدخول على السلطان في ليلة العيد ليقدموا له تهاني العيد، ويقوم ناظر الدولة بإعداد الخلع [5] وكان السلطان يخرج يوم العيد في موكب كبير يدل على البذخ والثراء وإبراز قوة الدولة وسلطانها.

---

1 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج1، ص289.

2 - المقريزي،السلوك، ج2، ص98./ ابن الحاج، المصدر السابق، ج1، ص287.

3 - عاشور، المجتمع المصري، ص184.

4 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج1، ص288.

5 - عاشور، المجتمع المصري، ص190.

وفي ليلة العيد كان السلطان يخرج بصحبه كبار الدولة لأداء فريضة صلاة العيد وسماع الخطبة. وعند الانتهاء من الصلاة يعود السلطان إلى قصره ليتقبل التهاني ويقدم الخلع والهدايا لكبار الدولة.

ومن عادات العيد كما في حلول شهر رمضان القيام الإفراج عن المساجين من الأمراء للظهور بمظهر التسامح ((*في يوم عيد الفطر تمّ الإفراج عن الأمير أرغون الأسعردي والأمير أروس المحمودي......*)) [1].

3- عيد الأضحى:

يكون في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة ويوافق عيد النحر آخر يوم من أيام الحج. وفي عيد الأضحى كان البعض يجهزون الأضاحي منذ ليلة العيد، كما كان بعضهم يقضي هذه الليلة في تجهيز ثيابه الجديدة [2]. وجرت عادات بعض الناس على عدم ذبح الأضاحي في العيد بالرغم من قدرتهم على ذلك، وكانوا يكتفون بشراء اللحوم من الجزارين [3].

وفي صباح يوم العيد يخرج الناس لأداء صلاة العيد كخروجهم يوم عيد الفطر، ويتهادون اللحم مثل تهاديهم الحلويات في يوم عيد الفطر، وبعد الفراغ من صلاة العيد يتوجه العامة إلى المقابر لزيارة القبور، وهذا المظهر استنكره ابن الحاج كما انتقد ابن الحاج خروج الناس بزينة كاملة إلى المقابر والشوارع واعتبره منافي للإسلام [4].

ويلاحظ هنا أن الاحتفال بعيد الأضحى والعادات المرتبطة لدى العامة مثلها مثل عيد الفطر يطغى عليها طابع اللهو والعبث ، ونرى أن المماليك لم يشاركوا العامة في احتفالاتهم وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على عدم الاندماج بين العامة والمماليك.

أما عن الاحتفالات الرسمية بعيد الأضحى، فقد حرص المماليك على الاهتمام بمثل هذه الأعياد الدينية لذلك كان السلطان يخرج يوم العيد مع كبار أمرائه ومماليكه في موكب عظيم شبيه

1 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج1، ص289.

2 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج1، ص283، 290.

3 - قاسم عبده قاسم، بعض مظاهر الحياة اليومية، القاهرة، 1968 ص293.

4 - ابن الحاج، المصدر السابق ،ج2، ص286.

بموكب عيد الفطر يطوف المدينة [1]. وبعد الانتهاء من الصلاة يتوجه لذبح الأضاحي وتوزيع اللحم والخلع والهدايا [2].

حرص المماليك أشد الحرص على إغداق الهدايا على مماليكهم في أيام العيد، فقد كان الأمير قوصون الناصري سنة 742 هـ / 1341م ينعم على مماليكه وحاشيته في كل عيد بألف رأس غنم وثلاثمئة رأس بقر [3]. وهذا يدل على ناحية هامة وهي ثراء المماليك من خلال ضخامة هذه الهدايا والخلع.

4- موكب عيدي الفطر والأضحى:

احتفل سلاطين المماليك رسمياً بعيدي الفطر والأضحى، وقد اعتاد السلاطين الركوب في المناسبات الدينية الإسلامية في مواكب كبيرة، ويتميز موكب العيدين بنظام وترتيب معين، وقد كان على مراحل يبدأ بخروج السلطان لأداء صلاة العيد في موكبه العظيم ثم رجوعه حيث سماط العيد وآخره توزيع الهدايا.

آ- هيئة موكب العيدين:

كان السلطان يخرج في أول يوم من العيد، وينزل إلى الميدان و يصلي صلاة العيدين ويكون نزوله في يوم العيد وصعوده من باب خاص من دهليز القصر الذي لا يخرج منه إلا في مثل هذه المناسبات [4]. ويكون قد أُعد للسلطان بهذا الميدان دهليز سلطاني ويكون هذا الدهليز على أكمل ما يكون من الهيئة [5].

وكان سلاطين المماليك البحرية قد اختاروا ميدان العيد لأداء صلاة العيدين وهو مكان متسع يتوفر فيه عنصر الفرجة وإظهار هيئة السلطان في موكب العيد،وذلك على عكس سلاطين

---

1 - المقريزي، السلوك، ج1، ص521.

2 - ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن القاهرة، تح مصطفى السقا، القاهرة، 1969، ج2، ص199.

3 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص314.

4 - العمري، مسالك الأبصار، ص73/ المقريزي، الخطط، ج2، ص229.

5 - الدهليز: هي خيمة سلطانية خاصة بركوبه في الموكب. للمزيد القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص46.

مماليك البرجية الذين غيروا مكان أداء صلاة العيدين إلى جامع القلعة، ويشير هـذا التغيير إلـى خوفهم من المؤامرات والدسائس التي كان يحوكها بعض الأمراء، وهـذا يـدفعنا إلـى القـول: إن الاستقرار السياسي كان عاملاً من العوامل المساعدة على بروز المواكب الـسلطانية بأبهـة. وفـي ميدان العيد يحضر خطيب جامع القلعة فيخطب ويصلي صلاة العيد [1].

وبعد الانتهاء من سماع الخطبة وصلاة العيد يركب السلطان ليعود إلـى الإيـوان الكبيـر بالقلعة [2] ويكون ذلك بموكب ضخم يشق شوارع القاهرة وسط انـدهاش العامـة لعظمـة وهيبـة السلطان وموكبه.

وقد كان الفرس الذي يمتطيه السلطان في هذا الموكب يقع اختياره من الإسطبل الـسلطاني خصوصاً لهذه المناسبة، ويختاره السلطان بنفسه ليوم العيد [3] وزينة الفرس تكون عليها رقبة مـن أطلس؛ أي حرير أصفر مزركش بالذهب بحيث لا يُرى الحرير لكثرة الذهب عليه وتجعـل علـى رقبة الفرس في العيدين والميادين من تحت أذني الفرس إلى نهاية عرفه، ويكون الـسلطان علـى رأسه العصائب السلطانية [4].

كما تُحمل أمام السلطان الجتر أو كما تسمى المظلة، والغاشية [5] ويحمل الجتر أحد أكـابر المقدمين الذين يكونوا بصحبة السلطان وإلى جانبه في هذا الموكب، أما الغاشية فيحملها موظفـون خاصون يسمون الركبدارية.

يلاحظ ظهور اللون الأصفر كلون مميز للدولة المملوكية، فكل الأعلام والرايات من الحرير الأصفر.

ويكون في صحبة السلطان في هذا الموكب الضخم عدد من كبار الأمراء وأرباب الوظائف والسلاح كلهم خلفه، وحوله، وأمامه الطبردارية؛ وهم الذين يحملون الفؤوس ويمـشي فـي مقدمـة

---

1 – ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج8، ص12.

2 – العمري، مسالك الأبصار، ص73/ المقريزي، الخطط، ج2، ص229.

3 – المقريزي، السلوك، ج2، ص655.

4 – السيوطي، ج2، ص127/ العصائب: عدة رايات منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالـذهب عليهـا ألقاب السلطان واسمه وتسمى العصابة، وراية عظيمة في رأس خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات صـفر صغار تسمى السناجق. للمزيد القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص8/ العمري، مسالك الأبصار، ص33.

5 – الجتر: هو من بقايا الدولة الفاطمية، في حين تعتبر الغاشية من خصائص الدولة المملوكية. للمزيـد العمـري، مسالك الأبصار، ص33.

موكب السلطان اثنان من أوشاقيته أو كما يسميان أيضاً الجفته [1] وهذا الأوشاقيان من الذين يتولون الخيل للسلطان؛ أي يهتمان بخيل السلطان في المواكب، ويكونان متقاربين في السن والشكل وعليهما ثياب من حرير أصفر وعلى رأسهما قبعتان من زركش، ويركبان على فرسين أشهبين برقبتين مشابهتين لخيل السلطان،والهدف من ذلك تضخيم لموكب السلطان.

ونرى أن الموسيقى كانت حاضرة في كل احتفالات المماليك،غير أن نوع الموسيقى كان يختلف باختلاف المناسبة، فأرباب الملاهي كانت من مميزات الاحتفالات الشعبية لديهم، في حين كانت الموسيقى التي تصاحب المواكب السلطانية من نوع الموسيقى الجيشية التي كانت تقوم بها الفرقة الموسيقية السلطانية [2] لإيقاع الرهبة في نفوس العامة.

كما كان يرافق السلطان من الموظفين الذين كانوا في خدمته أمير الركب، وهو المسؤول عن طائفة الناس التي تحمل المشاعل أمام السلطان في العيد، وإلى جانبه كبار موظفي الدولة الذين كانوا يصحبون السلطان ويكونون في خدمة موكبه،ونجد الخليفة العباسي المقيم في القاهرة يركب إلى جانب السلطان في موكب الأعياد [3].

ب- سماط العيد:

بعد عودة السلطان إلى عرشه يمد سماطاً سلطانياً عظيماً[4]، ويحتوي هذا السماط كل أنواع الأطعمة الفاخرة، والحلويات، والمشروبات الفاخرة، ويكون هذا السماط مكلفاً حيث إنه يبلغ في أغلب الأحيان أكثر من خمسين ألف درهم في كل يوم عيد فطر [5].

وقد كان للسماط السلطاني آدابه وترتيبه ونظامه، فيكون مكان السلطان على رأس السماط في حين يجلس الأمراء على يمين ويسار السلطان على قدر مراتبهم في القرب من السلطان [6].

---

1 - السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص133/ العمري، مسالك الأبصار، ص33/ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص46.

2 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص46.

3 - النويري، المصدر السابق، ج3، ص36/ المقريزي، السلوك، ج1، ص459.

4 - المقريزي، الخطط، ج2، ص229./ الحجي(حياة ناصر): أحوال العامة في حكم المماليك، شركة كاظمة للنشر، ط1، الكويت، 1984، ص 322.

5 - المقريزي، الخطط، ج2، ص211.

6 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص56.

فنظام الجلوس على السماط يعكس الهرمية في دولة سلاطين المماليك وهو ما يشير إلى أن كل شيء كان منظماً.

ج- خلع العيد:

يتم توزيع الخلع في آخر مرحلة من مراحل الاحتفال على كبار الأمراء وموظفي الدولة و توزيع الخلع ليس من استحداث المماليك، وإنما هو عمل موروث عن الدول السابقة لدولة المماليك. وقد كانت الخلع تختلف باختلاف مراتب الأمراء [1].

ويهتم السلطان بالخلع على الأمراء الذين كانوا في خدمته في موكب العيد، فيخلع على حامل الجتر، والسلاح وأستاذ دار، والجاشنكير، وكثير من أرباب الوظائف الذين كان لهم خدمة في العيد[2].

ومن المفيد الإشارة في نهاية هذا البحث إلى إمكانية حدوث بعض الاستثناءات في موكب العيدين، من تخلف السلطان على الركوب في العيدين، فالمعروف أن سلاطين المماليك كانوا دائماً في استعداد لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية المتمثلة في الخطرين المغولي والصليبي، وقد كان ذلك يتوافق أحياناً مع موعد حلول عيدي الفطر والأضحى، فيكون السلطان غائباً عن عاصمة ملكه؛لأنّ يضطر إلى القيام بمراسم العيد في الشام أو الحصن، ولكن لا يكون بهيبة كبيرة، وعلى العكس كانت في بعض الأحيان تتضاعف الاحتفالات إذا حصل توافق يوم العيد مع يوم نصره على العدو، فيكون العيد عيدين [3]. وبالتالي فإن ركوب السلطان يوم العيد مرتبط بالأوضاع السياسية.

ثانياً- الاحتفالات غير الشرعية:

لم تقتصر احتفالات المماليك على عيدي الفطر والأضحى، وإنما كانت هناك مناسبات ومواسم دينية سماها بعض المؤرخين بالأعياد غير الشرعية.

---

1 - ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، 1894، ص77./ ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص199.

2 - العمري، مسالك الأبصار، ص73. / القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص46.

3 - بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص168. / النويري، المصدر السابق، ج3، ص191.

وقد احتفظت دولة المماليك ببعض هذه الأعياد وألغوا بعضها الآخر، ولم يُبطلوا إلا ما كان منها ذا طابع شيعي.اعتنى المماليك بحكم الرخاء الاقتصادي والسياسي الذي تمتعت به دولتهم بإحياء هذه الأعياد التي ظهرت فيها مظاهر البذخ وحب الظهور بمظهر التمسك بالشعائر الدينية وتثبيت الجاه وإظهار النفوذ عن طريقها. وتتمثل هذه المواسم في الاحتفال برأس السنة الهجرية والمولد النبوي، وإحياء عدد من الليالي في السنة الهجرية وهي أول ليلة من شهر رجب وليلة المعراج التي توافق ليلة السابع والعشرين من نفس الشهر، وليلة النصف من شعبان والتي سميت بليالي الوقود.

1ً- إحياء ليلة رأس السنة الهجرية:

يعد اليوم الأول من محرم من السنة الهجرية يوماً معظماً؛ لأنه غرة السنة ومفتاحها، وقد اقتصر احتفال سلاطين المماليك بهذه المناسبة على طلوع الأمراء لتهنئة السلطان بالقلعة [1]. كما يذهب إليه القضاة الأربعة والخليفة ليهنئوه بالعام الجديد، وكذلك تهنئته بأول كل شهر، ويقرر السلطان بهذه المناسبة زيادة الأرزاق لأرباب الرواتب دون ذكر لخروج السلطان في موكب خاص بهذا الموسم.

أما عن العادات الشعبية التي ارتبطت بهذا الموسم، فيذكر ابن الحاج أن النساء كن يشترين اللبن في أول ليلة من شهر المحرم [2] تفاؤلاً بذلك؛ لأن السنة تكون بيضاء.

2ً- إحياء الموالد:

كان الاحتفال بهذه المناسبة فخماً يتناسب مع ما عرف عن المماليك من رفاهية، وكان السلاطين يحرصون على المشاركة في هذه المناسبة، والموالد عند المماليك لا تعني المولد النبوي فحسب بل أيضاً موالد آل بيت الرسول والأولياء الصالحين، لكن المولد النبوي كان أهمها.

---

1 – قاسم عبده قاسم، بعض مظاهر الحياة اليومية، ص36.

2 – ابن الحاج، المصدر السابق، ج1، ص278. / المقريزي، الخطط، ج1، ص22.

ويبدأ الاحتفال بالمولد مع مطلع شهر ربيع الأول، ويستمر حتى الثاني عشر منه، والاحتفال بالموالد موروث عن الفاطميين لكن المماليك غيروا بعض المعطيات والظروف على اعتبار المماليك كانوا من السنة [1].

وباعتبارهم ورثة الدولة الأيوبية يمكن أن نفسر تواصل الاحتفال بالمولد النبوي في عصر المماليك؛ لأن الأيوبيين الذين أطاحوا بالخلافة الفاطمية في مصر لم يكونوا صارمين في إلغاء الأعياد الفاطمية.

وجرت العادة في هذا المولد على إقامة خيمة ضخمة وكبيرة تسمى خيمة المولد [2] وعند أبواب الخيمة حوض جلدي مليء بعصير الليمون والسكر،يقف عليه عدد من الخدم يناولون الناس أكواب الليمون والسكر.

يبدأ الاحتفال الرسمي ظهراً. ويستمر حتى ساعة متأخرة، حيث يبدأ الاحتفال بقراءة القرآن، ثم يقوم الوعاظ بدورهم، ويأخذ كل منهم نصيبه من النقود والملابس التي يمنحها لهم السلطان. وبعد صلاة المغرب تفرش موائد الحلوى على اختلاف ألوانها ثم يبدأ المنشدون في مدح الرسول (ص) حتى ثلث الليل [3]. وبعد ذلك يأتي الخليفة والقضاة والجند والأمراء فئة بعد أخرى ليقبلوا الأرض أمام السلطان فينعم عليهم جميعاً بالخلع.

أما السماع فيبدأ من ثلث الليل ويستمر حتى الفجر، فتأتي فئات الفقراء فئة بعد أخرى ومعهم رئيس المغنين ويستمرون بالرقص والسلطان جالس ويده تملأ من الذهب ويفرغ لمن له رزق فيه، والخازندار يأتيه بكيس بعد كيس، حتى قيل: إنه فرق في الفقراء ومشايخ الصوفية والزوايا في تلك الليلة أكثر من أربعة آلاف دينار. كذلك بلغ نصيب بعض المغنيين في ليلة المولد من السلطان ألف درهم، وفي صباح المولد يوزع السلطان القمح على الزوايا والربط.

---

1 - Catherine Mayeur Joauen, gens de la maison et mouleds d'Egypte ,1991. P. 314.

2 - أول من صنع الخيمة السلطان قايتباي وبلغت كلفتها (30) ثلاثون ألف دينار وقيل في وصف خيمة المولد هذه أنها زرقاء اللون على شكل قاعة فيها ثلاثة أواوين وفي وسطها قبة على أربعة أعمدة. للمزيد عادل زيتون، تاريخ المماليك، ص146.

3 - عاشور، المجتمع المصري، ص177.

اعتاد كثير من سلاطين المماليك الاحتفال بالمولد النبوي في الدور السلطانية الخاصة بزوجات السلطان، وذلك في صبيحة يوم الاحتفال الكبير، و يبدو أن هذا الاحتفال لم تكن له صفة رسمية فلا يحضره أحد من القضاة أو مقدمي الألوف.

هذا هو الاحتفال الرسمي للمولد، لكن العامة كانوا يحتفلون على طريقتهم فيقيم الناس الحفلات في بيوتهم، حيث يبدأ الاحتفال بقراءة القرآن الكريم،ويليه المنشدون الذين تصاحبهم الآلات الموسيقية، وينشدون كثيراً في مدح الرسول الكريم (ص)، ويلي المنشدون حلقات الذكر التي يظهر فيها تأثير الصوفية ((*يقوم الواحد منهم و يرقص، وينادي، ويبكي، ويتباكى ،ويتخشع، وربما مزق ثيابه وعبث بلحيته*)) (1).

تطل النساء من الأسطح لمشاهدة الاحتفالات أمام المنازل المجاورة، كما كانت تقام داخل البيوت حفلات نسائية تلتف النساء حول إحدى محترفات الوعظ لسماع حديثها الديني (2).

ومن الطريف أن البعض كانوا يحتفلون بالمولد النبوي بغية استرداد الهدايا والنقود التي كانوا قد أهدوها للآخرين في المواسم والأفراح، وهذا ما يكشف أن المماليك كانوا يتبادلون النقود والهدايا في هذه المناسبات (3).

3- زيارة القبور والأولياء الصالحين:

ارتبطت زيارة القبور في الدولة المملوكية أساساً بالأعياد والمواسم الدينية وخاصة ارتباطها ببعض مظاهر الطرب واللهو. وزيارة القبور هو تقليد موروث عن الدولة الفاطمية، فالمعروف أن الدولة الفاطمية في إطار نشر المذهب الشيعي كان اعتناؤها كبير ببناء المشاهد والزوايا وإحياء موالد آل البيت، وقد تواصل ذلك في الدولة المملوكية، فقد ظل الناس يخرجون لزيارة القبور في عيدي الفطر والأضحى (4).

---

1 – ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص4.

2 – قاسم عبد قاسم، بعض مظاهر الحياة اليومية، ص295.

3 – ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص25.

4 – ابن الزيات، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، القاهرة، 1966، ص96- 102.

وقد تواصل اهتمام سلاطين المماليك بترميم هذه المشاهد والأضرحة (فقد جدد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عمارة مشهد السيدة نفيسة (رض) ووضع به المحراب وجدد عمارة قبة الإمام الشافعي...) [1].

وقد عد قبر الإمام الشافعي من أشهر مزارات المقابر، ويمكن أن نفسر اهتمام سلاطين المماليك بهذه المشاهد كطريقة لاستمالة العامة، وكسب ولائهم لتعلقهم بهذه المشاهد وتبركهم بها.

وإلى جانب اعتناء المماليك بصيانة المشاهد والأضرحة قاموا بإنشاء الزوايا، فالسلطان الظاهر بيبرس البندقداري بنى زاوية للشيخ بن أبي بكر بن موسى ببعلبك وعدة زوايا خارج القاهرة وكان يتبرك بها ((*وصار ينزل إليه، في الأسبوع مرة أو مرتين*)) [2].

كما حذا حذوه عدد من السلاطين ولعل اهتمام سلاطين المماليك وأمرائهم بتشييد الزوايا يعود لاعتقادهم وتبركهم بشيوخها، وأيضاً للظهور أمام العامة بمظهر المهتمين بهذه المعتقدات التي كانت تسيطر على عقول العامة، ولتكون بذلك وسيلة لجذب العامة وكسب ولائهم، وصرف نظرهم عن أمور الدولة.

وقد ارتبطت بزيارة القبور والزوايا عادات وصفها ابن الحاج بالذميمة؛ لأنها تتنافى مع آداب زيارة القبور كزيارة المقابر لمدة طويلة وإيقاد الشموع [3].

وعلى الرغم من أن زيارة المقابر مرتبطة بالموت، فقد ارتبطت أيضاً بالأعياد والاحتفالات فكانت قراراً في الأعياد؛ إذ يخرج العامة لزيارة قبور ذويهم وجعلها أماكن للهو والتنزه، ففيها تختلط النساء بالرجال، وتتحول من مقبرة إلى متنزه للهو وتتنافى هذه العادات مع ما يذكره ابن الحاج عن آداب الزيارة [4].

4- ليالي الوقود:

---

1 - ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص485.

2 - المقريزي، الخطط، ج2، ص430/ ابن الحاج، المصدر السابق، ج1، ص296.

3 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج1، ص251.

4 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج1، ص296/ ابن الزيات، الكواكب السيارة، ص16/ لمقريزي، الخطط، ج2، ص423/ قاسم عبده قاسم، بعض مظاهر الحياة اليومية، ص29.

ورث المماليك الاحتفال بهذه الليالي عن التقاليد الفاطمية، فقد عرف هؤلاء بإحياء ليالي الوقود دعاية لمذهبها الشيعي واستمالة للعامة [1]. وسميت بليالي الوقود؛ لأنهم خصوا هذه الليالي بزيادة الوقود للقناديل، وقد كان الاحتفال بها من أبهج الاحتفالات وتظهر فيها أنواع البر والإحسان، كما حرص العامة على إحياء هذه الليالي بالصيام وزيادة وقود القناديل [2].

وهذه الليالي هي:

أ- **ليلة أول شهر رجب:** وهي ليلة أول الأشهر الحرم ومن مظاهر الاحتفال في هذه الليلة كثرة الإنفاق وشراء الحلويات للأطفال، وهي تماثيل على هيئة الخيول والسباع والقطط، وكان العرف يحتم على الناس مهاداة أقاربهم وأصهارهم الحلوى، وفي المساء يجتمع كلٌ من النساء والرجال حول القراء والمنشدين الذين يقرؤون وينشدون بهذه المناسبة [3].

ب- **ليلة الإسراء والمعراج:** وهي ليلة السابع والعشرين من شهر رجب والعادة فيها الاجتماع في المسجد، وزيادة وقود القناديل، ويرتلون القرآن وينشدون، كما كانوا يفرشون البسط والسجادات داخل المساجد، وكانوا ينشرون الأواني والأباريق التي امتلأت بالمشروبات التي اعتاد الناس شربها في هذا الموسم، ويستمعون إلى مشاهير قراء عصرهم، وهم يرتلون آيات القرآن الكريم، وهذه الظاهرة انتقدها ابن الحاج كثيراً نتيجة اختلاط النساء والرجال وخروج النساء بأبهى حلة [4].

ج- **ليلة النصف من شعبان:** إحياء هذه الليلة يكون بالصيام وشراء الحلويات وتنويع المأكولات[5]. وكما كانت العادة في ليلة أول شهر رجب، وليلة الإسراء والمعراج كان العامة يخرجون رجالاً ونساءً إلى المساجد حيث تضاء القناديل والشموع حتى يتحول ليلهم إلى نهار،

---

1 - المقريزي، الخطط، ج1، ص491.

2 - المقريزي، الخطط، ج1، ص490.

3 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج1، ص291.

4 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج1، ص295.

5 - سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص184.

والاجتماع بالمسجد ليس فقط للذكر بل يكثر فيه اللغط واللهو، كما كان يتوجه الناس لزيارة القبور ليلاً، ومن عاداتهم في هذه الليلة إكساء المقابر بالثياب وتحليتها بالذهب [1].

أما عن الاحتفالات الرسمية بهذه المواسم، فلم تذكر المصادر عن مشاركة السلطان في إحياء هذه الليالي مما يؤكد على طابعها الشعبي . بينما ابن الحاج تحدث عن حضور الوالي وبعض أعوان الدولة ربما كان حضورهم بأمر من السلطان، وهي المشاركة الرسمية في هذه الاحتفالات[2]. كما نلاحظ أنه في هذه الليالي ظهر اللهو والطرب وابتعدوا عن الجانب الروحي.

5- موقف المماليك من احتفالات الشيعة:

اهتم سلاطين المماليك ببعض أعياد الشيعة وألغوا بعضها وذلك لاعتبارهم سنة، وغيروا بعض العادات، ومن أهم ما قاموا به: تواصلوا في الاحتفال بيوم عاشوراء لكن الاحتفال كان مقتصراً على المستوى الشعبي ولم يأخذ صفة رسمية.

ويوم عاشوراء هو من أعياد الشيعة وقد كان الفاطميون باعتبارهم شيعة يتخذون من هذا اليوم يوم حزن [3] فقد كانوا يبكون حزناً على الحسين بن علي الذي استشهد ذلك اليوم [4].

أما المماليك السنّة، فقد حولوا هذا العيد وجعلوه يوم فرح وسرور يضعون فيه الحلوى، ويبالغون في إظهار السرور [5] كما كان من عادات ذلك اليوم ذبح الدجاج وطبخ الحبوب و شراء البخور والتبخر به، ويقولون: إنه إذا بُخر به المسجون خرج من سجنه، وهو يبرئ من العين والحسد [6].

ومن الأمور التي قام بها المماليك هو إلغاء عيد الغدير بحيث اعتبروه بدعة من الشيعة في إطار تدعيم مذهبهم الشيعي، وتأكيد أولويتهم وأحقيتهم بالخلافة بانتسابهم لعلي ولآل البيت، وتذكر المصادر التاريخية أن سبب اتخاذهم له مؤاخاة النبي (ص) لعلي كرم الله وجهه يوم غدير خم [1].

---

1 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج1، ص308- 312/ المقريزي، الخطط، ج2، ص103.

2 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج1، ص309.

3 - المقريزي:، الخطط، ج1، ص490/ ابن الحاج، المصدر السابق، ج1، ص290/ ابن تغري بردي، المصدر السابق ج4، ص57.

4 - سعيد عاشور، صور من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى، القاهرة، 1968 ص164.

5 - سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص177.

6 - ابن الحاج، مصدر السابق، ج1، ص290.

وباعتبار الدولة سنية قائمة باسم الخلافة العباسية ومقراً لإقامة الخليفة العباسي 656 هـ/ 1258 م فكان من الطبيعي إلغاء هذا العيد أيام المماليك.

6- محمل الحج السلطاني:

لقد كان هذا الموسم محط اهتمام الجميع من السلاطين والعامة على حد سواء وفي هذه الفترة تزدهر الأسواق وتزداد فيها الحركة والنشاط لبيع لوازم الحجاج، ويستعد أهل الدولة والمماليك للسفر في رُكب الحج، ويحتفل المماليك بهذا الموسم احتفالاً عرف باسم دوران المحمل، والجدير بالذكر أن المماليك اهتموا اهتماماً بالغاً بهذا الموسم، وخاصة بتجهيز كسوة الكعبة وذلك في إطار حرصهم على الواجهة الدينية لحكمهم، والظهور بمظهر حماة الإسلام والحرمين الشريفين.

أ- استحداث المحمل:

كان الاحتفال بدوران المحمل يحدث مرتين في السنة في منتصف شهر رجب، ويطلق عليه المحمل الرجبي وهو من استحداث الظاهر بيبرس، أما الموعد الثاني فيكون بعد عيد الفطر حوالي منتصف شهر شوال.

أما بخصوص دوران المحمل الرجبي، فإن المصادر التاريخية تجمع على أن السلطان الظاهر بيبرس هو أول من أدار المحمل بمصر في شهر رجب والذي يسمى المحمل الرجبي، والمحمل هنا عبارة عن موكب ضخم له تنظيمه ورسومه أعد خصيصاً لحمل كسوة الكعبة كل سنة [2].

وهنا يجب التفريق بين كسوة الكعبة وبين المحمل، فقد كانت الدول السابقة والخلفاء يرسلون كسوة الكعبة كل سنة. أما المحمل فهو من ابتداع السلطان الظاهر بيبرس وبذلك يمكن القول: إن كل ما كان من إرسال الكسوة قبل سنة 675 هـ/1275م لم يكن في إطار خروج المحمل وإنما يمكن اعتباره تحضيراً أو تهيئة المجال لدوران المحمل السلطاني.

---

1 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص417/ المقريزي، الخطط، ج1، ص388.

2 - Jomier. Jacques, le mahmal et la caravane egyptienne, 1975,. P. 44

ب- أسباب استحداث المحمل:

كان الهدف الأساسي للظاهر بيبرس من استحداث المحمل هو إظهار رغبته في السيطرة على منطقة الحجاز وهنا يكون المحمل وسيلة لفرض السيطرة على الحجاز بعد تدعيم الحكم [1] فبعد حجة الظاهر بيبرس إلى الحجاز، وقيامه بكساء الكعبة بيده أمر بضرب النقود باسمه، وذكر اسمه في الخطبة وعيّن نائباً بالحجاز، فقد كان كل من يريد أن يضع يده على الحجاز عليه أن يتميز بشرف توفير كسوة الكعبة وقد كان المحمل السلطاني بكل رسومه وتنظيماته وسيلة لتحقيق ذلك [2].

ومما يؤكد أن المحمل الذي ابتدعه الظاهر بيبرس كان ذا طابعاً سياسياً أكثر منه دينياً فالمحمل كان مغطى بقماش من حرير أصفر وقد كُتب على إحدى وجوهه اسم السلطان، وباللون الأصفر كان لون دولة المماليك باعتبار على أن الراية المرافقة للمحمل كانت من حرير أصفر مذهب.

والمحمل دوره رمزي بما يحمله من هالة ومن إبراز قوة المماليك وهيبتهم، وقد صار المحمل يرسل سنوياً؛ لأنه يرمز لنفوذ الدولة وهو بذلك عنصر من عناصر تدعيم قوتها داخلياً وخارجياً [3].

ج- دوران المحمل:

ذكرنا سابقاً أن دوران المحمل يتم مرتين في السنة في منتصف شهر رجب ويسمى المحمل الرجبي، والثاني في شهر شوال ويسمى خروج المحمل، وكان الغرض من المحمل الرجبي وحسب ما ذكرته المصادر هو إعلام الناس باقتراب موعد الحج، وبث الحماسة الدينية في قلوبهم، فكان ينادى في شهر رجب لمدة ثلاثة أيام بدوران المحمل، ليستعد الناس لتزيين المدينة (فتهيج الغرمات

---

1 - J. C. Garcin, le proche orient à l'époque mamluke, 1987, P. 355

2 - المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك، الهيئة المصرية للكتاب،القاهرة، 1956 ، ص 90-93/ ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص220.

3 - المقريزي، الذهب المسبوك، ص92.

وتبعث الأشواق) [1]. وعندما يتم استعداد الناس يكون دوران المحمل في اليوم الرابع وغالباً ما يكون في يوم الاثنين أو الخميس [2].

وفي صباح اليوم المحدد لدوران المحمل تحتشد العامة لمشاهدة موكب المحمل وهو يشق شوارع القاهرة في موكب فخم، وكانت كسوة الكعبة توضع على جمل مزين بالحرير الأصفر [3].

وينطلق المحمل من أمام باب جامع الحاكم وأمامه الوزير، والقضاة الأربعة، والمحتسب وناظر الكسوة، ومجموعة من فرسان المماليك وهم يرتدون ملابس حربية، ويقومون بعرض مهاراتهم، ويمضي الموكب إلى قلعة السلطان حيث يشرف السلطان على استعراض الموكب، ويبرك الجمل تحية للسلطان، ويستعرض المماليك فنونهم الحربية، فيتجه الموكب الصاخب إلى الفسطاط حيث يخترق الشوارع الرئيسة [4]. ويلاحظ أن موكب الحج كبقية المواكب والاحتفالات الدينية بالأعياد والمواسم التي اعتاد سلاطين المماليك الخروج فيها، كانت ذات مزيج ديني ودنيوي.

كان يصاحب دوران المحمل جماعة من المماليك السلطانية تحمل الرماح،ويلعب بها أمام السلطان، وكانت هذه الألعاب ذات صبغة عسكرية ومما يؤكد اهتمام سلاطين المماليك بمحمل الحج كونها تشكل رمزاً للقوة التي كانوا يسعون إلى تطويرها، إضافة إلى العناصر التي كانت تبرز قوة وهيبة حكم سلاطين المماليك، التي تظهر من خلال الألعاب العسكرية.

وقد وصف ابن شاهين موكب المحمل وصفاً دقيقاً قائلاً *((أما موكب دوران المحمل فهو يوم مشهود، وتجتمع فيه أهل الديار المصرية والصادر، والوارد وتلعب فيه الرماحة، وكسوة الكعبة الشريفة مشهورة على رؤوس الحمالين، والقضاة، والعلماء، والمشايخ، والصلحاء، وطوائف الفقراء يسيرون أمام المحمل الشريف والأطلاب مزينة، وكل ما بالديار المصرية من التحف والغرائب يُشهر في ذلك اليوم))* [5].

---

1 - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص64.

2 - ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص199/ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص57.

3 - ابن شاهين، المصدر السابق، ص87.

4 - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص64/ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص58/ ابن شداد: الفضائل الباهرة، ص199.

5 - ابن شاهين، المصدر السابق، ص87.

ثم يحمل المحمل من أمام جامع الحاكم ويوضع في مكان بالمدينة إلى حلول شهر شوال. قد يخرج بعض الحجاج للزيارة في شهر رجب ويطلق عليهم الحجاج الرجبية [1].

د- خروج المحمل:

يعد شهر شوال الموسم الرئيس لخروج الحجاج إلى الحجاز مع موكب المحمل الذي يخرج بعد عيد الفطر بأيام؛ أي منتصف شهر شوال، فيدور باحتفال ضخم يشبه احتفال دوران المحمل الرجبي.

لكن رحلة المحمل مختلفة؛ لأنه يخرج من أمام جامع الحاكم عند نهاية القلعة تحت أنظار السلطان،ولكنه لا يتجه إلى الفسطاط بل يعود من تحت القلعة إلى باب النصر ومنه إلى الريدانية للسفر إلى الحجاز، ويكون على رأس المحمل أمير الحج [2].

ويكون المحمل منظماً تنظيماً دقيقاً لسلامة موكب الحج والحجاج، فأمير الحج هو قائد المحمل وهو ممثل السلطان ويكون من الجيش المملوكي لحفظ أمن الحجاج؛ ولأن طريق الحج وعرة وغير آمنة، وهو ما يعطي صبغة عسكرية للمحمل.من هنا كان المحمل رمز قوة لسلاطين المماليك.

ويتم اختيار أمير الحج ليلة المولد النبوي، وفي بعض الأحيان كان السلطان بنفسه يتولى قيادة المحمل أو يكلف أحد أبنائه.

وقد قدم السيوطي وصفاً دقيقاً لخروج المحمل (*فيخرج الركب من مصر بالمحمل السلطاني والسبيل المسبل للفقراء، والضعفاء، والمنقطعين بالماء والزاد، والأشربة، والأدوية، والعقاقير، والأطباء، والكحالين، والمجبرين، والأدلاء، والأئمة، والمؤذنين، والأمراء، والجند، والقاضي ،والشهود، والدواوين، والأمناء ومغسل الموتى في أكمل زي وأتم أبهة، وإذا نزلوا منزلاً أو رحلوا مرحلاً تدق الكوسات وينفر النفير ليؤذن للناس بالرحيل*...) [3].

---

1 – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص58/ ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص336.

2 – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص58/ Jomier Jacques, le mahmal et la caravane. P. 37, 42.

3 – السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص310.

ذكرنا سابقاً أن السلطان قد يكون على رأس محمل الحج، وهنا تزداد رغبة الأمراء والأعيان والناس في السفر إلى الحج كما يزداد عدد الأمراء والجنود لضمان سلامة السلطان، وتتخذ إجراءات أمنية كبيرة عند خروج السلطان، أو أحد أبنائه للحج، فالسلطان الملك الأشرف عندما قرر الحج سنة 778 هـ/ 1386م أرسل جماعة من الأمراء لحفظ البلاد من العرب، وأرسل عدداً من الأمراء إلى سائر الثغور لحفظها أيضاً، كما كان المحمل في غاية الزينة والهيبة [1].

وإذا خرجت زوج السلطان، فإنه يهيئ لها رَكب خاص تسبقه فرقة من كبار الأمراء [2].

ويعد السلطان الظاهر بيبرس أول من حج من سلاطين المماليك، ثم حج بعده السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي حج ثلاث مرات [3]. وكان السلاطين يستغلون موسم الحج لتوزيع الصدقات والهبات على الفقراء والحجاج من جهة ومن جهة أخرى على أمراء مكة وأرباب وظائفها لكسب ولائهم [4].

وهكذا كان الحج عنصراً من عناصر إقامة وتوطيد العلاقات الخارجية، فقد حرص سلاطين المغرب على توطيد علاقاتهم بمصر؛ لأنها كانت طريق حجهم [5].

هـ- عادات الحج:

من أهم العادات قيام الناس بتزيين الجِمال بالحلي من الذهب والفضة، والأساور والقلائد وإلباسها الحرير، وقد كانوا يقومون بذلك عند خروجهم من القاهرة، وكذلك يفعلون عند الرجوع من الحج.

كانت النساء تخرجن ليلاً في الأيام السابقة عند خروج المحمل لتوديع أقاربهن المتوجهين إلى الحج، إضافة إلى تزيين الدكاكين بالقماش والحرير، وإيقاد القناديل ليلاً ونهاراً.

---

1 - ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ص192.

2 - Abd ARAZIQ Ahmed, la femme au temps des mamluks, Paris, 1995, P. 206- 207

3 - ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص483. كانت حجته الأولى سنة 712 هـ ثم حج سنة 719 هـ أما حجته الثالثة سنة 732 هـ. للمزيد ابن إياس، المصدر السابق، ص483.

4 - ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والصورفي سيرة الملك المنصور، تح مراد كامل، القاهرة، 1961، ص145.

5 - المقريزي، السلوك، ج2، ص447.

هذا إلى جانب عادات الرجال من لبس الحرير والاختلاط مع النساء، وكان يصحب هذه الأجواء ضرب الطبول، والأبواق عند عودة الحجاج وذلك لتهنئتهم. وقد اعتبر ابن الحاج هذه الأعمال جميعها إضاعة للمال، والمباهاة والتفاخر، تشجع على المفاسد وارتكاب المحرمات [1].

ويمكن القول: إن هذا المحمل له بعدين أساسين هما:

أ ـ البعد السياسي باعتبار أن المحمل رمز لسيطرة المماليك على الحجاز والأماكن المقدسة.

ب ـ البعد الديني، وهو حرص المماليك على الظهور بمظهر المحافظين على أركان الدين الإسلامي.

و- عودة الحجاج:

كانت عودة الحجاج مناسبة احتفالية وهي ثالث الاحتفالات المرتبطة بالحج بعد احتفال دوران المحمل الرجبي، والاحتفالات المصاحبة لخروج المحمل، ويكون استقبال عودة الحجاج في أواخر شهر محرم، وكانت العادة أن يسبق الحجاج مبشر الحاج ينبئ بسلامة الركب والحجاج، وكان هذا المبشر يسبق قدوم المحمل بثلاثة أيام [2].

وتكون المحطة الأولى للمحمل عند بركة الحاج [3]، وفي اليوم التالي يشق الركب مدينة القاهرة وسط احتفالات كبيرة. وعند دخول الركب إلى القاهرة يصعد أمير الحج إلى السلطان المتواجد في القلعة ليفيض عليه بالخلع، وهي من العادات المتبعة.

وتكون الاحتفالات أكثر فخامة إذا كان السلطان على رأس الركب. وقد يخرج السلطان بنفسه إلى بركة الحاج لاستقبال زوجه عند عودتها من الحج في موكب عظيم يخلع فيه السلطان الخلع على الأمراء وزوجاتهم، والناس يستقبلون الحجاج بمد موائد الطعام والحلويات [4].

---

1 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج4، ص216.

2 - المقريزي، السلوك، ج2، ص494.

3 - تقع بركة الحاج في الجهة البحرية من القاهرة وعرفت بهذا الاسم من أجل نزول حجاج البر بها عند مسيرتهم من القاهرة وعند عودتهم.

4 - المقريزي، السلوك، ج2، ص466.

يلاحظ أن سلاطين المماليك كانوا يستغلون أية مناسبة لتوزيع الصدقات ومنح الخلع والعطايا لكسب الولاء.

كذلك انعكست مظاهر التدهور العام في أواخر عصر سلاطين المماليك على احتفال دوران المحمل، فقد قلّ الاهتمام بأمر المحمل، ولم يعد الحكام يلتزمون بمواعيده التقليدية، كما كانت الأوبئة والمجاعات التي تحصد أعداداً كبيرة من السكان تؤثر على الاحتفال، وتسبب قلة في الناس المشاركين في الاحتفال [1].

ومن ناحية أخرى انعكست حالة التدهور الأمني على احتفال دوران المحمل، فقد ابتكر المماليك بدعة جديدة هي (عفاريت المحمل) وهم مجموعة من المماليك يركبون خيولهم وقد غيروا من هيئتهم بشكل مزعج، فيطرقون أبواب الأعيان والأمراء، ويأخذون منهم المال قسراً، ويعترضون الناس في الشوارع، وكانوا يخطفون النساء والصبيان ويفسقون بهم جهراً، وينهبون الأمتعة... الخ. فطالب الناس بإلغاء بدعة ما سموه عفاريت المحمل [2].

ثالثاً- احتفالات طوائف المجتمع

تتمثل بطائفتين أساسيتين هما: النصارى واليهود وكل منهم يُقسم إلى طوائف فطوائف النصارى تتمثل بطائفتين أساسيتين، الطائفة الملكية، واليعاقبة وترجع الاختلافات بين الطائفتين إلى نزاعات مذهبية حول طبيعة المسيح هل هو إله أم بشر [3].

أما اليهود فينقسمون زمن الدولة المملوكية إلى ثلاثة فرق دينية، وهم الربانيون، والقراؤون، والسامرة، وانقساماتهم أيضاً ذات طبيعة دينية مرتبطة بمدى الاعتراف بأسفار التوراة والتلمود، والاقتراب من أصول الديانة اليهودية.

وقد تمتعت طوائف المجتمع في الدولة المملوكية بحرية العقيدة حيث كانوا يمارسون طقوسهم الدينية بحرية، ومن مظاهر ذلك عدد أعيادهم الدينية. وهو ما يدل من ناحية أخرى على أهمية أهل الذمة العددية ومكانتهم الاجتماعية.

---

1 - المقريزي، السلوك، ج4، ص1006./ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص37.

2 - المقريزي، السلوك، ج2، ص1026/ ويذكر ابن الصيرفي(علي بن داوود): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تح حسن حبشي، القاهرة 1970- 1973 ،ج3، ص155 أنه حدث في سنة 832 هـ أنه تصدى الناس لعبث المماليك الأجلاب وقتلوا اثنين منهم.

3 - قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، القاهرة ، دار المعارف، 1979 ص103.

1- أعياد النصارى:

تجمع المصادر التاريخية أن أعياد النصارى في عصر سلاطين المماليك كانت عديدة أو كثيرة، وتنقسم إلى نوعين: كبار وصغار؛ وهي سبعة أعياد كبرى وسبعة صغرى [1].

آ- الأعياد الكبار:

- **عيد البشارة:** في التاسع والعشرين من شهر مارس (برمهات) وهو بشارة جبريل عليه السلام للسيدة مريم بمولد المسيح عليه السلام.
- **عيد الزيتونة:** أو عيد الشعانين ومعناها التسبيح في ذكرى دخول المسيح إلى القدس، ثم دخوله الهيكل، ويحتفل به في الأحد السابع من صومهم الذي يوافق اليوم الثاني والأربعين من بداية الصوم. وفي عيد الشعانين تزين الكنائس، ويخرج الناس حاملين معهم سعف النخيل، كما يخرجون إلى الأماكن الخلوية والمتنزهات لا سيما في ضاحية المطرية، حيث كان يوجد بئر يسمى البلسم ويعتقد المسيحيون أن مريم العذراء غسلت فيه ثياب المسيح [2].
- **عيد الفصح:** وهو عيد الفطر من صومهم الأكبر، ويحتفلون فيه بذكرى قيام المسيح من قبره واجتماعه مع تلامذته، وتناولهم الطعام معه، ويكون ذلك في ليلة الحادي والعشرين من مارس (برمهات).
- **عيد خميس الأربعين:** ويتصل هذا العيد بالتراث الديني المسيحي الذي يقول: إنه السيد المسيح صعد إلى السماء بعد أربعين يوماً من قيامه، وذلك بعد أن أكمل ثلاثاً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر [3]. ويُعرف هذا العيد عند أهل الشام بالمسلاق، ويقال له أيضاً عيد الصعود.
- **عيد الخميس:** أو عيد العنصرة في السادس والعشرين من شهر مايو (بشنش)، ويعتقد المسيحيون أنه بعد عشرة أيام من الصعود، وخمسين يوماً من قيامة المسيح اجتمع التلاميذ

---

1 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص425/ المقريزي، الخطط، ج1، ص264/ ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص59.

2 - المقريزي، الخطط، ج1، ص263/ رمضان (هويدا عبد العظيم): المجتمع في مصر الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، مصر، ج2، ص 62.

3 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص426.

(حواري المسيح) في صهيون، فتجلى لهم روح القدس في شكل ألسنة من نـــار، وتفرقــت عليهم ألسنة الناس، فتكلموا بجميع اللغات، وذهب كل منهم إلى البلد الـــذي يعــرف لغتـــه للدعوة إلى دين المسيح [1].

- ❖ **عيد الميلاد:** ذكرى ميلاد السيد المسيح الذي يحتفل به الناس في التاسع والعــشرين مـــن شهر ديسمبر (كيهك) وهي ذكرى مولد المسيح عشية الأحد؛لأنهم يعتقدون أن السيد المسيح ولد يوم الإسفين. كان النصارى يوقدون المصابيح بالكنائس ويزينونها، ويلعبون بالمـــشاعل ويقول المقريزي: إنه شاهد احتفالات الميلاد التي كانت (موسماً جليلاً) تباع فيـــه الـــشموع المصبوغة بالألوان الرائعة ويشتريها الناس جميعاً، ويزدهر سوق الشمّاعين لهذا السبب. وقد بالغ الناس في الإنفاق على تزيينها [2].
- ❖ **عيد الغطاس:** وهو العيد السابع من الأعياد الكبرى، كان النـــصارى يحتفلـــون فيـــه فـــي الحادي عشر من شهر يناير (طوبة) في ذكرى تعميد السيد المـــسيح علـــى يـــدي يوحنـــا المعمدان (النبي يحيى بن زكريا) عليهما السلام في مياه الأردن. وفـــي هـــذا العيـــد كـــان النصارى يغمسون أولادهم في المياه على الرغم من شدة البرد،اعتقاداً منهم أن ذلك يقـــيهم شر المرض طوال حياتهم [3].

ب- الأعياد الصغار:

- ❖ **عيد الختان:** يحتفلون به في اليوم السادس من شهر يونيو (بؤونه) وهو اليوم الثـــامن مـــن الميلاد هو ذكرى ختان المسيح.
- ❖ **عيد الأربعين:** يحتفل به النصارى في الثامن من شهر فبراير (أمشير) في ذكـــرى مباركـــة الكاهن سمعان للسيد المسيح بعد دخوله الهيكل بعد أربعين يوماً من مولده.

---

1 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص426./ المقريزي، الخطط، ج1، ص263.

2 - المصدر السابق، ج1، ص263.

3 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص56. /المقريزي، الخطط، ج1، ص266./ المقدسي، أحسن التقاسيم، دار الرشيد، بغداد، 1970، ص 231./ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الفكر، بيـــروت، ج2، 1980، ص 1955.

❖ **عيد خمسين العهد:** يأتي قبل عيد الفصح بثلاثة أيام وكانوا يملؤون إناءً مـــن المـــاء، ثـــم يغسل البطريرك رجل أحد النصارى المتواجدين في ذكرى غسل المسيح لأرجـــل تلامذتـــه ليعلمهم التواضع، ثم أخذ عليهم العهد ألا يتفرقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض، وعامة الناس كانوا يسمونه خميس العدس، ويقول أهل الشام: خميس الأرز، ويبدو أن هذه التسميات تعود إلى نوع الطعام الذي اشتهر كل إقليم بتناوله في هذه المناسبة. وكان من عادات أهل مـــصر مـــن المـــسلمين والنـــصارى، تبـــادل الهـــدايا والأطعمـــة فـــي هـــذا العيد [1].

❖ **عيد سبت النور:** وهو قبل عيد الفصح بيوم ويزعمون أن النور يظهر على قبر المسيح في هذا اليوم، فتوقد منه مصابيح كنيسة القيامة بالقدس، وكان من عادات النصارى فـــي هـــذا اليوم أن يقوموا بجمع أنواع مختلفة من ورق الشجر، ويضعونه في إنـــاء مملـــوء بالمـــاء ويغتسلون به ثم يقومون بإلقاء ذلك الماء المستعمل في طريق الناس، زعماً مـــنهم أن ذلـــك يذهب عنهم المرض والحسد [2].

❖ **عيد حد الحـــدود:** وهو بعد عيد الفصح بثمانية أيام ويكون أول أحد بعد الفطر؛ لأن الأعياد قبله مشغولة بالصوم، وفيه يجددون الآلات والأثاث واللباس.

❖ **عيد التجلي:** يزعمون أن المسيح تجلى لتلامذته بعدما رُفع وتمنوا عليه أن يحضر لهم إيليا وموسى عليهما السلام، فأحضرهما بمصلى بيت القدس ثم صعد إلـــى الـــسماء وتـــركهم. ويحتفل به في الثالث عشر من شهر أغسطس (مسرى).

❖ **عيد الصليب:** احتفلوا به في اليوم السابع من شهر ديسمبر (تـــوت) وهـــو مـــن الأعيـــاد المحدثة، وسببه ظهور الصليب على يدي هيلانة أم قسطنطين. ويـــذكر المقريـــزي: أنهـــا سافرت إلى بيت المقدس في طلب آثار المسيح عليه السلام، وبناء الكنائس، وإقامة الشعائر النصرانية. ويقال: إن الأسقف مغاريوس دلها على الخشبة التي زعموا أن المـــسيح صـــلب

---

1 – المقريزي، الخطط، ج1، ص737. هويدا، المرجع السابق، ص65.

2 – ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص56.

عليها. وقد قضى ما عمل به اليهود، فحفرت فوجدت قبراً وثلاث خشبات على شكل صليب فاتخذوا ذلك اليوم عيداً وسموه عيد الصليب، وبنيت في المكان نفسه كنيسة القيامة [1].

2- أعياد اليهود:

هناك نوعان من الأعياد لليهود في عصر المماليك؛ أعياد مرتبطة بشريعتهم،وتسمى الأعياد الشرعية وعددها خمسة، وأعياد أخرى تسمى بالأعياد المحدثة وهي الأعياد غير الشرعية.

آ- الأعياد الشرعية:

- **عيد رأس السنة:** واسمه العبري القديم (رأش هيشا) وبالعبرية الحديثة (روش هشاناه) يقدمون فيه الأضاحي في ذكرى افتداء إسماعيل، ويحل أول شهر تشري اليهودي [2] ويعد هذا العيد عيد عتق وحرية عند اليهود؛ لأنه يرتبط بخلاصهم من فرعون، وقد سماه المقريزي "عيد البشارة" [3]. وثمة اختلاف بين طريقة كل من الربانيين والقرائين في الاحتفال بهذا العيد، رصدتها المصادر في تلك الفترة. إذ كان الربانيون ينفخون الأبواق في معابدهم أثناء الصلاة، في حين اكتفى القراؤون بالصلاة والتهليل حمداً وشكراً؛ لأنه يعد يوم عتق رقاب بالنسبة لهم [4].
- **عيد صوماريا:** ويسمى عندهم أيضاً الكبور، وهو يوم الغفران عندهم وعقوبة من لا يصوم هذا اليوم أن يقتل. ويرى بعض الباحثين أن هذا العيد الذي يرجع إلى عصور العبرانيين الأولى مرتبط بأصول الشريعة اليهودية التي قررت يوماً في العام لحساب الذات، وأن اليهود من شدة ما علنوه من اضطهادات على طول تاريخهم جعلوا هذا اليوم لنقض

---

1 - المقريزي، الخطط، ج1، ص738.

2 - شهورهم اثنا عشر شهراً. وأيام السنة ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً، وشهورهم هي: تشري، مرحشوان، كسليو، طبيت، شفط، آذار، نيسن، أيار، سيوان، تموز، آب، أيلول. للمزيد المقريزي، الخطط، ج3، ص718.

3 - المقريزي، الخطط، ج2، ص471.

4 - المقريزي، الخطط، ج2، ص471/ القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص426/ النويري، المصدر السابق، ج1، ص187/ مراد فرج، القراؤون والربانيون، القاهرة، 1978 ص124.

مواثيقهم، وأكل الديون التي يدينون بها لغير اليهود [1]. ومدة الصوم أربع وعشرين ساعة، تبدأ فيها من غروب الشمس في اليوم التاسع من شهر تشري، وتنتهي بغروبها في اليوم العاشر. وربما سموه العاشور.

ويشترط فيه لجواز الإفطار رؤية كواكب عند الإفطار ولا يجوز أن يقع هذا الصوم عندهم يوم الأحد ولا يوم الثلاثاء ولا يوم الجمعة، ويعتقدون أن الله يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم[2].

❖ **عيد المظلة:** أو عيد الظل. يبدأ الاحتفال به في الخامس عشر من شهر تشري ويستمر سبعة أيام، واليوم الثامن يسمى عيد الاعتكاف عند الربانيين وفي هذا العيد يحتفل اليهود بذكرى الغمام الذي أظلهم الله به في التيه، فيجلسون تحت سعف النخيل الأخضر وأغصان الزيتون وغيرها من الأشجار الدائمة الخضرة [3].

❖ **عيد الفطير:** ويعرف أيضاً بعيد الفصح، موعده في الخامس عشر من شهر نيسان اليهودي وقد اختلفت الفرق اليهودية حول مدة الاحتفال به، فهي سبعة أيام عند القرائين، وثمانية أيام عند الربانيين، وستة فقط عند السامرة. ويعد هذا العيد من أعياد التضحية ومواسم الحج لدى اليهود، بينما يحج الربانيون والقراؤون في هذا العيد إلى بيت المقدس، ويضحون على الصخرة المقدسة، وتحج السامرة على جبل حزريم القريب من نابلس في فلسطين ويضحون هناك. وفي هذا العيد يأكلون الفطير، وهو ذكرى لإحياء الأيام التي خلص فيها بنو إسرائيل من يد فرعون وإغراقه، فخرجوا إلى التيه، فأخذوا يأكلون اللحم والخبز والفطير [4].

❖ **عيد الأسابيع:** ويسمى بعيد العنصرة والخطاب الذي يحتفلون فيه بذكرى الوصايا العشر التي أنزلها الله على نبيه موسى عليه السلام، وهذا العيد يحل في السادس من شهر سيوان اليهودي، واحتفالاً في هذه المناسبة يأكل اليهود القطايف [5].

---

1 - ظاظا (حسن): الفكر الديني الإسرائيلي، القاهرة، 1971 ص194.

2 - المقريزي، الخطط، ج2، ص473/ هويدا، المرجع السابق، ص69.

3 - المقريزي، الخطط، ج2، ص472/ القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص437.

4 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص268، ص269./ التطيلي(بنيامين): رحلة بنيامين التطيلي، بغداد، 1348هـ، ص185، ص190.

5 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص426/ المقريزي، الخطط، ج2، ص472.

ب- الأعياد المحدثة:

- **عيد الفوز:** ويسميه اليهود أيضاً عيد (البوريم) وهو ذكرى انتصار اليهود على الوزير الفارسي هامان الذي أخذته الغيرة من اليهود وأراد القضاء عليهم، لكن نفوذ أستير الجميلة لدى الامبراطور الفارسي جعله يقتل هامان ورجاله. يبدأ هذا العيد بالصوم ويستمر من الثالث عشر من آذار حتى الخامس عشر منه، ثم يقيم اليهود مهرجاناً صاخباً يحرقون فيه تمثالاً من الورق المملوء بالنخالة رمزاً لهامان. ويبدو أن هذا العيد كان يرتبط بمظاهر اللهو والخلاعة في عصر المماليك لدرجة جعلت المؤرخين المسلمين يطلقون عليه عيد المسخرة. وفي هذا العيد كان اليهود يتبادلون الهدايا والهبات [1].
- **عيد الحنكة:** ويسمى أيضاً الحانوكة. كان الاحتفال به يستمر على مدى ثمانية أيام تبدأ من ليلة الخامس والعشرين من شهر (كسليو) في ذكرى انتصار اليهود على أنطوخيوس أبيفانس الذي حاول إرغام اليهود على عبادة الأصنام،ولكنهم استعادوا هيكلهم وطهروه من الأصنام، والكلمة العبرية الحانوكة تعني التنظيف؛أي أن اليهود نظفوا الهيكل من تماثيل آلهة اليونانيين.

وفي عصر المماليك كان اليهود يوقدون المصابيح على أبواب دورهم وفقاً للعد التصاعدي، ففي الليلة الأولى يوقدون قنديلاً واحداً، وفي الليلة الثانية قنديلين حتى تتم ثمانية قناديل في اليوم الثامن. وقد كان الربانيون الأكثر اهتماماً بهذا العيد مقارنة بالقرائيين. والسامرة الذين لم يهتموا به [2].

---

1 - ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، القاهرة، 1258هـ، ج1، ص78./ النويري، المصدر السابق، ج1، ص189./ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص126.

2 - النويري، المصدر السابق، ج1، ص178. القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص427. المقريزي، الخطط، ج2، ص472.

الفصل الثاني

الاحتفالات المملوكية والسلطانية

أولاً- الاحتفالات المملوكية:

1- إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة والاحتفال بتولية الخليفة:

تعرضت دولة المماليك إلى أخطار داخلية وخارجية هددت وجودها، لذلك سعى سلاطين المماليك منذ البداية إلى البحث عن هذه الشرعية التي افتقدوا إليها للحفاظ على استقرار سلطتهم واستمرار حكمهم [1]. فحاولوا إحاطة دولتهم بإظهار الولاء للخلافة العباسية، ورغم تركيز المصادر على الدور الذي شغله الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية والحصول على الشرعية [2]، فإن

---

1 - J. C. Gracain, Le système mamluk et le Blocage de la société mamluk,1990, P. 98

2 - زيادة(محمد مصطفى): بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، م4، ج1، 1936، ص75.

الظاهر بيبرس لم يكن أول من قام بهذا المشروع، فقد ظهرت هذه المحاولات مع أحمد بن طولــون سنة 269 هــ/882 م ثم مع محمد الأخشيد سنة 333 هــ/ 944 م [1].

وقبيل قيام دولة المماليك البحرية وتحديداً في تاريخ حكم شجرة الدر أرسل أمراء المماليــك إلى بغداد يطلبون اعترافاً بشجرة الدر. من هنا نلاحظ أن جل ملوك مصر سعوا للحــصول علــى التفويض أو التقليد من الخليفة العباسي؛ لأنه كان من المصطلح أن لا شرعية للحكم عند المــسلمين إلا بتفويض من خليفة المسلمين ببغداد، وخاصة منهم المماليك الذين كانوا من الرقيق ولــيس لهــم أصل، فكانوا بحاجة أكثر من غيرهم للحصول على الشرعية التي كانوا يفتقدون إليها. وقــد كــان للسلطان الظاهر بيبرس الفضل في إحياء الخلافة العباسية وإقامتها بالقاهرة ليدعم بذلك حكمه ضــد أطماع منافسيه، وليحصل على شرعية حكمه من خلال تفويض الخليفة العباسي المقــيم بالقــاهرة. ولكن نجاح السلطان الظاهر بيبرس بتحقيق هذا المشروع لا يرجع إلى حكمتــه الــسياسية فحــسب وإنما أيضاً للظروف التي ساهمت في تحقيق ذلك.

وأهم هذه الظروف التي ساهمت في إحياء الخلافة العباسية في القــاهرة، ســقوط الخلافــة العباسية ببغداد على أثر الهجوم المغولي على العراق سنة 656 هــ/ 1258 م والتي قتــل أثناءهــا الخليفة العباسي المستعصم بالله وأولاده، ثم ظهور المماليك كقوة وحيدة قادرة علــى الــدفاع عــن المسلمين [2]. وبسقوط الخلافة العباسية أصبح العالم الإسلامي بدون خليفة، وأصبح من المــستحيل أن تقام خلافة من جديد ببغداد والعراق التي أصبحت قاعدة للمغول، وظل العالم الإســلامي بــدون خليفة مدة ثلاث سنوات [3].

وهنا ظهر الظاهر بيبرس كمنقذ للوضع بعد أن اجتمعت الظروف لصالحه، وبعد أن كــان منقاداً بقوة لاستكمال هذا المشروع ليكتسب به شرعية الحكم خاصة وأنه استلم الحكم بعــد أن قتــل السلطان المظفر قطز عند عودته من معركة عين جالوت التي ساندت موقع المماليك كقوة وحيــدة قادرة على حماية المسلمين ضد خطر المغول والصليبيين، مما دفع بيبرس لإحياء الخلافة لتــدعيم حكمه واكتساب الشرعية. وأيضاً مد نفوذه وسلطانه باسم الخليفة على الحجاز من خلال محمل الحج السلطاني.أمام هذه الظروف كان اعتراف الخلافة الإسلامية به هو السند الوحيد لــه وكــان إحيــاء

1 – عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص32.

2 - قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، دار الشروق، القاهرة، 1994اص6.

3 – ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص109.

الخلافة العباسية خروجاً من أزمة كبيرة، تحققت على يد الظاهر بيبرس سنة 659 هـ/ 1261 م حيث تذكر المصادر أن أحد أفراد العائلة العباسية وهو أول الأمراء الناجين من الإبادة قدم من بغداد إلى القاهرة ويدعى أبو القاسم أحمد وهو عم المستعصم وأخ المستنصر [1].

وتذكر الروايات أن الأمير العباسي هو من اتصل بالظاهر بيبرس في حين تورد بعض الروايات أن الظاهر بيبرس هو من سعى للبحث عن هذا الأمير واستقدمه إلى مصر. وعندما خرج الأمير العباسي الإمام أحمد إلى القاهرة ركب السلطان الظاهر للقائه في موكب مشهود [2].

ويستدل من خروج السلطان بنفسه للقاء الأمير العباسي على تلهف السلطان بيبرس لاستقباله ومبايعته؛ لأنه الضامن لشرعيته، ولم يخرج السلطان لوحده وإنما كان في صحبته (الوزير بهاء الدين بن حنا، وقاضي القضاة ،وتاج الدين بن بنت الأعز، والشهود، والرؤساء، والقراء والمؤذنون، واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل... وكان لدخوله يوم مشهود). كما يذكر السيوطي أنه دخل من باب النصر (بأبهة عظيمة) [3].

وقد بالغ بيبرس في احترامه وإكرامه. بدأ دخول موكب الأمير العباسي بالطواف بالمدينة وهو يرتدي الشعار العباسي المتمثل بالسواد وبصحبته أعيان الدولة وقد خرج الناس لرؤيته والاحتفال بقدومه، ثم صعد إلى قلعة الجبل. ومن مظاهر مبالغة السلطان الظاهر بيبرس باستقباله أنه جعل الإمام يتقدم عليه في الدخول [4].

وكل ذلك قبل التأكد من نسبه، وبعد خمسة أيام من قدوم الأمير عقد السلطان مجلساً عاماً بالإيوان الكبير وقد أقيم هذا المجلس العام بهدف التثبت من صحة نسب الأمير أحمد وتوليته الخلافة والأهم من ذلك حصول السلطان على تقليد من الخليفة الجديد. ويبدو أن السلطان أظهر في هذا الموكب من التواضع والإجلال للأمير العباسي، وفيه وقع التثبيت من نسب الأمير العباسي، وأقروا جميعاً صحة نسب الأمير إلى العباس بن عبد المطلب، وأنه الإمام أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله ابن الناصر لدين الله العباسي.

---

1 – المقريزي، السلوك، ج1، ص22. / ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج5، ص297.

2 – العيني، المصدر السابق،ج1، ص294.

3 – السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص53. / ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص109.

4 – حطيط (أحمد): الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية، دار المعارف، القاهرة، 1986، ص31.

وهنا يتضح رغبة الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية بسرعة لتشريع سلطته؛لأن هذا المجلس كان أمراً شكلياً [1].

وبتثبيت نسب الأمير العباسي تمت مبايعته بالخلافة من قبل السلطان والقضاة، ثم بايعه الأمراء، ثم سائر الناس على اختلاف طبقاتهم وكتبت الرسائل إلى سائر الولايات لأخذ البيعة من أهلها [2]. ولقب الخليفة الجديد بالمستنصر بالله لقب أخيه الذي قتل على أيدي التتار [3].

وبعد البيعة تمت الخلافة للمستنصر بالله، وصحت له الإمامة، وكتب السلطان أن ((يخطب له على المنابر وتنقش السكة باسمه واسم الملك الظاهر)). وأنزل الخليفة الجديد بقلعة الجبل في مكان خاص من البرج له ولحاشيته، وخدمه.

وفي يوم الجمعة الموافق للسابع عشر من شهر رجب ((*ركب الخليفة بأبهة السواد باجتماع القضاة والعلماء*)) [4].وخطب بالناس وصلى بهم في جامع القلعة، وألقى في الناس خطبة بليغة أظهر فيها من الثناء على السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، وفضله في إحياء الخلافة العباسية [5].

لم يكد الظاهر بيبرس ينتهي من مبايعة الخليفة الجديد حتى طلب منه التفويض بالسلطنة، فقد كان من الضروري أن يبايعه الخليفة ويقلده السلطنة حتى تصبح ولايته شرعية وهو ما كان يسعى السلطان الظاهر بيبرس إليه [6]. فكان من الخليفة الجديد أن بايع بدوره السلطان الظاهر بيبرس بحضور أعيان الدولة، وكبار رجال الدين [7].

وقد كان السلطان بحاجة إلى تدعيم سلطانه بهذه المظاهر الاحتفالية، ثم أقيم احتفال تولية السلطان الظاهر بيبرس ونصبت الخيمة بقبة باب النصر بحضور الخليفة، والسلطان، والوزراء والأمراء ((*ركب السلطان إلى خيمة ضربت له بالبستان الكبير بظاهر القاهرة، وألبسه الخليفة الأبهة العباسية وهي الجبة السوداء، والعمامة البنفسجية، والطوق، وتقلد سيفاً وجلس مجلساً*

---

1 - العيني، المصدر السابق، ص295.

2 - ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص195.

3 - السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص53./ ابن اياس،: بدائع الزهور، ج1، ص314.

4 - ابن اياس، بدائع الزهور، ج1، ص315.

5 - ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص103.

6 - ابن اياس،: بدائع الزهور، ج1، ص316.

7 - العيني، المصدر السابق، ص296.

عاماً))[1].وبايعه الخليفة والأمراء ولقب السلطان الظاهر بيبرس بقسيم أمير المؤمنين، وقد أثنى الخليفة بخطابه على السلطان ودوره في إحياء الخلافة العباسية. وطلب منه أن يعيد الخلافة إلى بغداد وهو ما يفهم من خلال الخطاب: ((*وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة المعظمة إلى ما كان عليه من الأيام الأولى*)) [2].

وبعد الانتهاء من قراءة التقليد ركب السلطان الظاهر بيبرس بشعار السلطنة ((والقيد في رجليه والطوق في عنقه والوزير بين يديه على رأسه التقليد والأمراء والدولة في خدمته)) [3].
ثم انطلق بعد ذلك ليشق القاهرة احتفالاً بهذه المناسبة، وقد بُسطت الطريق للسلطان بالثياب الفاخرة ومشى عليها حتى وصل إلى القلعة [4].

وبذلك حصل على الشرعية التي كان يفتقدها بعد أن اعتلى الحكم بالقوة بدون سند شرعي.
لكن إحياء الخلافة العباسية بمبايعة المستنصر كانت تمثل مجرد مرحلة أولى بسبب مقتل الخليفة عندما قرر استرجاع مقر خلافته ببغداد، وقد شغل الظاهر بيبرس دوراً في ذلك عندما جهز له جيشاً قوامه ثلاثمئة فارس للوقوف بوجه الجيش المغولي الضخم وهو ما يرجح تخطيط الظاهر بيبرس التخلص من الخليفة المستنصر، بعد أن حصل منه على تفويض بالسلطنة، وظلّ العالم الإسلامي من جديد بدون خلافة. فاستقر رأي بيبرس على استقدام خليفة آخر تكون له هذه الزعامة الدينية ويضمن له شرعية الحكم على أن يكون هذه المرة تحت سيطرته [5].

ثم استقدم السلطان سنة 661 هـ- 1262 م أميراً عباسياً يدعى أبو العباس أحمد، لما قدم إلى مصر استقبله السلطان بنفس الحفاوة التي استقبل بها المستنصر بالله [6] وأقام له احتفالاً لمبايعته بعد إثبات صحة نسبه، ثم بايع السلطان وتلقب بالحاكم بأمر الله.

---

1 - العيني، المصدر السابق، ص296./ ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص195.
2 - السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص54./ النويري، المصدر السابق، ج30، ص34.
3 - العيني، المصدر السابق، ص298. / السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص58.
4 - العيني، المصدر السابق، ص298./ النويري، المصدر السابق، ج30، ص35.
5 - النويري، المصدر السابق، ج30، ص34./ ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص195.
6 - ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص195.

لكن هذه المرة لم يقم السلطان بمبايعة الأمير إلا بعد مضي ستة أشهر، فالأمير وصل القاهرة في السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة 660 هـ/ 1261م ولم يبايع سوى في الثامن من محرم سنة 661 هـ/ 1262م، وظل الأمير مقيماً طيلة هذه الفترة دون مبايعة [1].

وفي سنة 661 هـ/ 1262م احتفل السلطان بتولية الخليفة الجديد بالإيوان الكبير بقلعة الجبل في موكب عظيم اجتمع فيه الأمراء والجنود ((*جلس السلطان بالإيوان لبيعته وحضر القضاة، والأعيان، وأرباب الدولة، وقرأ نسبه على قاضي القضاة، وشهد عنده جماعة بذلك فأثبته*)) [2].

يلاحظ أن السلطان في كل بيعة يقوم بإثبات صحة نسب الخليفة أولاً وعلى إثر مبايعة الخليفة على كتاب الله وسنة رسوله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر أعيد إحياء الخلافة العباسية من جديد، وبالمقابل بادر الخليفة بتقليد الظاهر بيبرس أمور البلاد [3].

لكن هذه المرة قرر السلطان أن تكون القاهرة مقر الخليفة العباسي ،وقد أنزل الحاكم بأمر الله بقلعة الكبش ((*فسكن بها إلى ان مات*)) [4].

ورغم دور المماليك في الجهاد ضد الغزو الصليبي والمغولي لحماية الإسلام، فإن ذلك لم يضمن لهم شرعية الحكم باعتبارهم من الرقيق إلا بعد الحصول على تفويض من الخليفة العباسي وذلك بعد إحياء الخلافة وإن كانت مؤسسة الخلافة شكلية [5].

حصل المماليك بإنجازهم هذا على امتياز كبير، وظهروا أمام العالم الإسلامي كحماة للخلافة العباسية، وبذلك استطاع الظاهر بيبرس أن يضمن لدولة سلاطين المماليك حماية روحية كفيلة بأن تحصنهم ضد أي معارضة داخلية أو خارجية، وأن تحقق لهم استقرار دواتهم واستمرارها.

وتأكيداً على الامتياز سارع الظاهر بيبرس إلى بسط نفوذه على بلاد الحجاز حيث الحرمين الشريفين [1].

---

1 – ابن تغري ، المصدر السابق، ج7، ص118. / السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص329.

2 – ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص118.

3 – العيني، المصدر السابق، ص51./ بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص51.

4 – ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص119.

4 – العيني، المصدر السابق، ص51./ ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص195.

5 – محمود سليم رزق، المرجع السابق، ص14– 18./ العبادي(أحمد): في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص153.

وقد اقتصر دور الخليفة على الظهور إلى جانب السلطان في المناسبات الدينية كالأعياد والمواسم، فقد رسم له السلطان *((أن يطلع إلى القلعة عند مستهل كل شهر ويهنئ السلطان بالشهر))*[2]. وكان أهم عمل يقوم به الخليفة العباسي في القاهرة هو مبايعة السلطان الجديد بالسلطنة وتفويض أمور المسلمين إليه والركوب مع السلطان في الأعياد والمناسبات.

ويشير البحث في هذه الحقبة إلى أنه كان يصحب تولية الخليفة الجديد في كل مرة حفل تظهر فيه مظاهر العظمة والأبهة، ويبدأ هذا الاحتفال بتقليد الخليفة أمور الخلافة من طرف السلطان، والقضاة، ويحضر الاحتفال القضاة وأعيان الدولة، وكان الخليفة يلبس السواد شعار الدولة العباسية [3].

2- الاحتفال بتولية السلطان المملوكي:

كان السلطان في عصر المماليك أعلى سلطة، حيث يصل إلى عرش السلطنة في الغالب نتيجة اختيار كبار الأمراء له، وليس نتيجة الوراثة.

وكان يحدد وصوله إلى منصب السلطان عدة ظروف أهمها: ضمان الأمير الطامح إلى السلطنة الولاء من عدد كبير من المماليك، كما كان على السلطان أن يتقرب من كبار الأمراء، وضمان ولائهم عن طريق توزيع الإقطاعات والوظائف.

وقد كان وصول الأمراء إلى عرش السلطنة عن طريق قتل السلطان السابق، أو نفيه خارج القاهرة، ومن أجل استمرار السلطان في منصبه كان عليه أن يكون قوياً. وإلى جانب دور الأمراء في استمرار حكم السلطان، فقد كان هذا الأخير بحاجة إلى تشريع أو ضمان شرعية حكمه، فكان يحصل تبعاً لذلك على تفويض من الخليفة العباسي بعد إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة؛ لأن السلطان نفسه كان من المماليك وكان بحاجة لضمان شرعية حكمه.

كانت العادة في مصر المملوكية أنه إذا خلا العرش من السلطان يتشاور كبار الأمراء فيما بينهم لتولية واحد منهم، وقد كان يقع الاحتفال بالسلطان الجديد قبل الشروع في دفن السلطان

---

1 - J. C. Garcin, Le proche oriente à L'épouque mamluke. P 444

2 - ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص320.

3 - ابن إياس، بائع الزهور، ج1، ص321. ابن كثير، المصدر السابق، ج14، ص19./ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص66.

الراحل [1]. كما كانت العادة في مصر المملوكية أن يصاحب تولية السلطان الجديد وتفويضه للحكم من قبل الخليفة، احتفال ضخم ومهيب له تنظيمه وتراتيبه كما تبرز من خلال شعائر السلطنة وهيبة السلاطين ودولتهم.

أما بالنسبة إلى طريقة الاحتفال في الدولة المملوكية،فقد كان لهـا خـصوصيتها وتراتيبهـا الخاصة، كما أنها تطورت كثيراً عما كانت في بداية الحكم. ففي بداية حكم المماليك وتحديـداً منـذ نشأة دولة سلاطين المماليك البحرية ومع أول سلاطينها السلطان الملـك المعـز أيبـك التركمـاني (648- 655 هـ= 1250/1257م)، تميزت هذه المرحلة ببدايات الدولة الجديدة وخاصة وقوعهـا تحت تهديدات الأخطار الداخلية المتمثلة في المعارضة الأيوبية والأخطار الخارجية المتمثلـة فـي الخطرين الصليبي والمغولي.

ويشار هنا إلى أنه تولى السلطنة قبل الظاهر بيبرس البندقداري ثلاثة سلاطين وهـم علـى التوالي السلطان المعز أيبك التركماني 648/ 655 هـ = 1250/ 1257م ثم الملك المنصور نور الدين علي بن المعز 655/ 657 هـ = 1257/ 1258م، فالسلطان المظفر سيف الدين قطز 657/ 658 هـ = 1258/ 1259م، وقد تميز موكب تولية هؤلاء السلاطين الثلاثة ببـساطته، أمـا عـن صفة هذا الاحتفال فتمثل أساساً في اجتماع الأمراء وتوليتهم للسلطان الجديد من بينهم، فقـد كـان للأمراء القوة التي تمكنهم من تولية السلطان الحكم.

أما موكب الاحتفال بهؤلاء السلاطين أي في بداياته، فإنه يتميز ببساطته، ويتمثل أساساً فـي اجتماع كبار الأمراء وعقد البيعة للسلطان الجديد الذي يركب بالسناجق شاقاً القاهرة باتجـاه القلعـة وقد حملت بين يديه الغاشية و "حملت على رأسه القبة والطير" [2].

ويظهر من خلال هذا الوصف أن السلطان يظهر ببعض عناصر شعائر السلطنة التي تتمثل في السناجق، وهي الرايات، أو الأعلام السلطانية [3]، أما الغاشية فهي كما وصفها القلقشندي "سرج من أديم محـزوزة بالـذهب... تحمـل بـين يـدي الـسلطان عنـد الركـوب فـي المواكـب الحفلة" [4]. وهي خاصة بالسلطان. أما القبة والطير اللتان يحملهما السلطان الجديد على رأسه فهما

---

1 - الشجاعي، المصدر السابق، ص124.

2 - ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص288. / بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص27.

3 - العيني، المصدر السابق، ص34.

4 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص7.

اللتان يسميهما القلقشندي بالمظلة أو الجتر وهي ((قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب)) [1].

أما عن رحلة الموكب فلا يوجد لها ذكر إلا في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي عند حديثه عن تولية السلطان المنصور بن المعز الذي ركب ((من القلعة إلى قبة النصر في موكب هائل ثم عاد ودخل القاهرة من باب النصر)) [2].

ويذهب السلطان آخر مرحلة من مراحل الاحتفال إلى القلعة حيث يمد سماطاً سلطانياً للأمراء [3]. ثم تكتب البشارة بتولية السلطان. ويبدو واضحاً من صفة هذا الموكب ما أظهرت من بساطة خاصة عند تولية السلاطين الثلاثة الأوائل لدولة المماليك البحرية، مقارنة بما شهده من تعقيدات مع سلطنة الظاهر بيبرس ومَنْ بعده مِنَ السلاطين، ليكون بذلك مظهراً من مظاهر التركيز والتدعيم أسس الدولة المملوكية، ويعتبر السماط أيضاً من بقايا الدول العباسية والفاطمية ثم الأيوبية.

ويظهر أن هذه البساطة التي نلاحظها في موكب تولية سلاطين المماليك في بداية نشأتها يعود أساساً إلى أن الدولة كانت في بدايتها إضافة إلى الأخطار الداخلية والخارجية التي كانت تواجه هذه الدولة الناشئة. وحتى السلطان الظاهر بيبرس عندما تولى السلطنة على إثر قتله للسلطان المظفر قطز، فقد اقتصر موكب توليته في البداية سنة 658 هـ / 1259م على مبايعة الأمراء له وتحليف ((سائر العساكر والوزراء وأرباب الوظائف والأقلام، فحلفوا جميعاً)) [4]. دون أن يركب بشعائر السلطنة مدة طويلة ((وانقضت هذه السنة 658 هـ / 1259م ولم يركب موكب السلطنة أحد)) [5]. وهو ما يعني أن السلطان الجديد الظاهر بيبرس لم يشأ الركوب في موكب إلا بعد أن يكسب الأمراء، ويستميلهم، وخاصة الكبار منهم، وهو ما يؤكده المؤرخ بيبرس المنصوري من أن السلطان بيبرس البندقداري ((مكث شهوراً ثلاثة لم يركب موكباً ولم يطلع له في أفق الراكب كوكب إلى أن أيقن أمره وأمن من كل ذي مكر مكره ثم ركب بعد ذلك)) [6].

---

1 – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص7.

2 – ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص41.

3 – المصدر السابق، ج7، ص41.

4 – العيني، المصدر السابق، ص262.

5 – المصدر السابق، ص262.

6 – بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص45.

وبعد أن تمكن السلطان الظاهر بيبرس من احتواء أعدائه ومنافسيه، وبعبارة ابن تغري بردي ((بعد أن تمّ أمره في السلطنة وأطاعته العساكر)) [1]. ركب السلطان الظاهر ((بشعائر السلطنة وأظهر المهابة المتمكنة وشق المدينة وقد زخرفت بالزينة ونثرت عليها الدنانير والدراهم وأفيضت الخلع على الأمراء والمقدمين والوزراء والمتعممين على تفاوت أقدارهم)) [2].

وقد كان ركوب السلطان في رحلة من قلعة الجبل بشعار السلطنة شاقاً القاهرة مروراً بباب النصر وباب زويلة ((والأمراء وأعيان الدولة مشاة في خدمته)) [3].

أما عن صورة هذا الاحتفال النهائي لتولية سلاطين المماليك، فقد كانت له مراحله وترتيبه وسيرورته كما تظهر به شعائر السلطنة،والتي سماها ابن خلدون إشارات الملك التي كانت تعكس بذخ السلاطين [4].

ويبدأ هذا الاحتفال باجتماع الخليفة، والقضاة الأربعة، وكبار الأمراء [5] بدار العدل أو كما يسمى أيضاً الإيوان وهي قاعة ضخمة بالقصر السلطاني فيها تقع كتابة التقليد أو التفويض للسلطان الجديد بالسلطنة، وهذا التفويض الصادر عن الخليفة يضمن شرعية حكم السلطان الجديد وبه يتولى شؤون مصر وشؤون المسلمين كافة، ويتلى هذا التقليد وتكون تلاوته من قبل كبير موظفي ديوان الإنشاء، وما يهمنا هو ما يظهر في هذا التقليد من العبارات التي تبرز تفويض السلطان من طرف الخليفة على البلاد الإسلامية، والتي يعبر عنها الخليفة في التقليد بقوله ((فوضت إليك جميع أحكام المسلمين)) [6].

وفي مرحلة ثانية وبعد قراءة التقليد عن لسان الخليفة فالقضاة والأمراء على حسب مراتبهم لمبايعة السلطان الجديد، وعلى إثر ذلك يلبس الخليفة السلطان شعائر السلطنة والتي تعني أنواع الملابس والأدوات والتراتيب التي كان السلطان يظهر بها في الموكب مثل موكب التولية.

---

1 – ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص102.

2 – العيني، المصدر السابق، ص288– 289.

3 – النويري، المصدر السابق، ج30، ص17.

4 – ابن خلدون، المقدمة، ص284.

5 – ابن شاهين، المصدر السابق، ص86.

6 – المقريزي، السلوك، ج2، ص558.

ويتمثل لباس السلطان عادة في هذه المناسبة ارتداء عمامة سوداء لها عذبة مذهبة، وجبة سوداء بزيق وأكمام واسعة [1] وتسمى هذه الجبة أيضاً الخلعة الخليفية، ويحمل السلطان أيضاً سيفاً ذو حمائل يسمى أيضاً بالسيف العربي [2]، ومما يلاحظ أن لباس السلطان يتميز بلونه الأسود وهو شعار الدولة العباسية [3] عموماً وهو رمز الحصول على التفويض من الخليفة العباسي والحكم باسم الخلافة العباسية، فالخليفة العباسي عندما كان يتولى الخلافة يظهر بهذه الملابس وتقدم للسلطان بهذه المناسبة فرس بسرج مذهب مزدانة بالثياب والحلي كما أن الفرس الذي يركبه السلطان يوم توليته كان يسمى فرس النوبة وهو خاص بهذه المناسبة ولا يركبه إلا السلطان الجديد عند توليته.

وتلي هذه المرحلة، مرحلة اختيار لقب وكنية للسلطان الجديد، وعادة ما يكون هذا الاسم مركباً وذو صبغة دينية مثل سيف الدين، ركن الدين، وكنية مثل المظفر والظاهر... وأكثر من ذلك تعبيراً ورمزية أن السلطان الظاهر بيبرس لقب ((بقسيم أمير المؤمنين)) وهو أول من لقب بهذا اللقب من السلاطين، كما حرص سلاطين المماليك على اكتساب صفة الملك من خلال تلقيبهم بالملوك التي كانت تسبق تسميتهم مثل السلطان الملك الظاهر بيبرس، والسلطان الملك المنصور.

وبعد الانتهاء من اختيار لقب وكنية للسلطان الجديد تأتي مرحلة طواف موكب السلطان بالقاهرة، والذي يشق القاهرة وسط اندهاش العامة بهيبة السلطان وعظمته، وقد كان دور العامة الفرجة و تهيئة المدينة وزينتها عادة عند تولية السلطان الجديد [4].

أما عن هيئة السلطان في هذا الموكب، فإنه يكون على الفرس التي يختص السلطان الجديد بركوبها عند توليته، وتكون عليها الرقبة التي تعتبر من شعائر السلطنة وهي طوق من حرير أصفر مزركش بالذهب توضع على رقبة الفرس من أذنيه إلى نهاية عرقه [5] والتي خلعها عليه الخليفة. وقد نشر فوق رأسه القبة والطير وهما من شعائر السلطنة، أما القبّة فيبدو أنها كانت تتمثل في شبه مظلة من الحرير المزركش والمموه بخيوط من

1 – ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص295.

2 – المقريزي، الخطط، ج2، ص209.

3 – ابن خلدون، المقدمة، ص286.

4 – ابن كثير، المصدر السابق، ج14، ص240.

5 – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص7.

ذهب [1]، أما الطير فكان من الذهب ويوضع فوق القبة [2] والتي يسميها القلقشندي بالجتر [3]، وهي من الحرير الأصفر وكانت تحمل فوق رأس السلطان، وهناك العصائب السلطانية وهي رايات صفر مطرزة بذهب تحمل لقب السلطان واسمه [4].

ويذكر ابن خلدون أن ظهور الرايات وكثرتها كانت تحدث نوعاً من الرهبة ولها تأثير في النفوس وإيحاء بهيبة السلاطين [5] واللون الأصفر لون رمزي؛ لأنه يمثل اللون المميز للدولة المملوكية.

ويشق السلطان القاهرة في أبهة وقد حمل التقليد على رأسه في كيس من حرير أسود ويحمل هذا التقليد الوزير ويكون بصحبته ((الأمراء وأرباب الدولة مشاة بين يديه حتى يطلع إلى القلعة في ذلك الموكب العظيم)) [6].

وبعد أن ينتهي السلطان من طوافه في شوارع القاهرة، يعود إلى القصر بالقلعة حيث يقبل الأمراء الأرض أمام السلطان [7] تذللاً ورمزاً للولاء والخضوع له. كانت ترافق موكب السلطان ((الجاويشية تصيح والشبابة السلطانية ينفخ بها الطبردارية حواليه)) [8]. وكانت وظيفتهم ضرب الطبول وعزف موسيقى جيشية توحي بالقوة ،وتثير نوعاً من الرهبة في صفوف العامة خاصة الذين كانوا يخرجون بأعداد غفيرة لمشاهدة طواف موكب السلطان، ويلاحظ أن الموسيقى المصاحبة للسلطان كانت جيشية وظيفتها إيقاع الرهبة ولا يقصد منها اللهو.

---

1 - القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص8.

2 - العمري، مسالك الأبصار، ص33.

3 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص8.

4 - العمري، مسالك الأبصار، ص31.

5 - ابن خلدون، المقدمة، ص285- 286.

6 - ابن اياس، بدائع الزهور، ج1، ص351.

7 - المقريزي، الخطط، ج2، ص209.

8 - المقريزي، الخطط، ج2، ص209./ الشجاعي، المصدر السابق، ص204.

وآخر مرحلة من الاحتفال يمد سماط سلطاني ضخم، وهو أيضاً من بقايا فاطمية كما يقوم السلطان بالخلع على أمرائه وأرباب الوظائف [1]، وكسب ولاء كبار الأمراء ويخلع على الخليفة أيضاً.

تختلف الخلع والتشاريف السلطانية باختلاف رتب الأمراء، وأيضاً باختلاف المناسبة، ويذكر القلقشندي أن اختلاف التشاريف يكون حسب الأمراء ومكانتهم وقربهم من السلطان، فتشاريف الأمراء ((قوقاني أطلس أحمر بطراز مزركش)) [2].

أما عن المناسبات التي يتم فيها خلع تشاريف على الأمراء، فيكون ذلك عند تولية أمير جديد. ويخلع السلطان على القاضي والناظر وكل من يخدمه في الموكب.

يتضح من خلال دراسة مراحل تولية السلطان، والظروف والترتيبات المصاحبة لموكب توليته أنّ المماليك نجحوا في التوفيق والجمع بين التقاليد الإسلامية وغيرها من التقاليد التركية من خلال ربط الاسم التركي للسلطان باللقب الإسلامي الذي يحصل عليه بعد توليته والنظم والتقاليد المملوكية [3] التي تظهر مع ظهور الوظائف التي تولاها بعض الأمراء الذين كانوا في خدمة السلطان، والتي كانت من استحداث السلطان الظاهر بيبرس في إطار تدعيم دولته.

كما يتبين مدى إدراك المماليك لقضية الرموز وخاصة تميزهم باللون الأصفر الذي يبرز في الأعلام السلطانية. كما يعد التطور الذي شهده موكب تولية السلطان دليلاً لتطور دولة المماليك ونظمها ويعتبر تعدد الشعائر مظهراً من مظاهر البذخ وثراء السلاطين.

3- الاحتفال بترقية المماليك

كان المماليك من أصول عرقية مختلفة قبجاقية تركية من جنوبي روسيا والقوقاز...، يصلون القاهرة عن طريق الشراء من تجار الرقيق الذين كانوا في أغلبهم من الأوربيين [4].

1 - الشجاعي، المصدر السابق، ص128./ المقريزي، الخطط، ج2، ص228./ ابن اياس، بدائع الزهور، ج1، ص431.

2 - صبح الأعشى، ج4، ص53.

3 - Andre Glot. L'Egypte des mamluks, 1969, P. 106

4 - ماجد عبد المنعم، المرجع السابق، ص11- 12.

فقد كانت الطبقة الحاكمة تقوي نفسها بما يجلب إلى مصر من المماليك بانتظام وفي أعداد كبيرة، باعتبار أن الحرب كانت وظيفتهم، وكانت مقتصرة عليهم، في حين لم ينخرط أبناء المماليك صغار السن المجلوبين، فقد كان السلطان المملوكي يشتري ما يلزمه من المماليك بأعداد كبيرة لاستخدامهم في الجيش، وقد بالغ بعض سلاطين المماليك في شراء المماليك، حتى بلغت مشتريات السلطان قلاوون مثلاً اثنا عشر ألفاً وهو عدد لم يجمعه أحد من سلاطين مصر قبله [1].

ويعد هؤلاء المماليك الذين اشتراهم السلطان من المحظوظين ويسمون بالمماليك الأجلاب، فقد كانت عناية السلطان بهم فائقة إضافة إلى أنهم كانوا الأكثر حظاً في الترقي. هذا ويختلف ثمن المملوك حسب قيمته، فمثلاً: الظاهر بيبرس الذي هو في الأصل مملوك [2] بيع بثمن بخس بحوالي ثمان مئة درهم؛ لأنه كان أعوراً في حين بيع قلاوون بألف دينار لبعض مميزات توفرت فيه ولذلك سمي بالألفي نسبة لثمن شرائه [3].

ويخضع هؤلاء المماليك منذ شرائهم إلى تربية خاصة دينية إسلامية وعسكرية تمتد بعض السنين، وقد أعدت لهم أماكن خاصة تسمى الطباق يقع تكوينهم فيها، وقد سمي هؤلاء المماليك الذين ينزلون بالطباق باسم مماليك الطباق أو المماليك الكتابية نسبة للمكان الذي يتمون فيه تدريبهم المدني والعسكري.

ويتعلم هؤلاء المماليك الصغار بالطباق العلوم الدينية الإسلامية على أيدي الفقهاء والمؤدبين، ويبدؤون بقراءة القرآن، والخط، فآداب الشريعة، والصلاة، والإذكار، وقد اعتنى السلاطين بالتكوين الديني لمماليكهم؛ لأنه شرط الدخول في الخدمة هو الإسلام.

وعندما يصل هؤلاء المماليك إلى سن البلوغ ينتقلون إلى تعلم أنواع الفنون الحربية من فروسية ورمي السهام والنشاب ولعب الرمح.

أما فيما يتعلق بتكوين المماليك،فقد كان عدد منهم لا ينزلون للتعلم بالطباق، وإنما يتميزون بحصولهم على شرف التربية مع أبناء السلاطين، وبالتالي فهم أكثر حظوة من بقية المماليك

---

1 – ابن دقماق، المصدر السابق، ص306.

2 – النويري، المصدر السابق، ج30، ص13.

3 – قاسم عبده قاسم، بعض مظاهر الحياة اليومية، ص11.

السلطانية بالطباق؛ لأنهم كانوا يرتقون بسرعة في الوظائف والرتب العسكرية ليصل المحظوظ منهم إلى منصب السلطنة [1].

وقد كان يخصص لهم كل مستلزماتهم وهم في الطباق يزاولون تكوينهم، فكان يخصص لهم الرواتب النقدية والعينية المتمثلة في الخبز واللحوم والتوابل [2]. غير أن باب الترقي لم يكن مفتوحاً أمام المماليك السلطانية إلا بعد أن يعتقهم السلطان، ليتمكنوا بعدها من الترقي في الوظيفة العسكرية من أمير خمسة، أو عشرين، أوخمسين إلى أمير مائة، أو ألف ليبلغ منصب السلطنة نفسه [3].

وبالتالي يعد عتق المماليك السلطانية من أهم المراحل التي يمر بها المملوك السلطاني الذي يقع تكوينه بالطباق وقد خصص لهذه المناسبة وهي عملية عتق المماليك الكتابية احتفال هام وضخم يقع خلاله منح شهادة تسمى إعتاق أو عتاقة تفتح أمامهم باب الترقي في سلم الإمارة [4].

وعلى إثر انتهاء مدة التكوين التي يحصل عليها المماليك السلطانية بالطباق، تكون مرحلة عتق المماليك، فيقام لهذه المناسبة الهامة احتفال خاص له طقوسه ورموزه ومراحله الثابتة، وهي مرحلة أساسية تمكن المماليك على إثر ذلك من الانضمام إلى الهرمية العسكرية المملوكية.

أما عن صورة الاحتفال بترقية المماليك فهو احتفال ضخم ومهيب، وله رموزه ومراحله الثابتة، ويبدو أن المماليك كان لهم وعي ومعرفة بهذه الرموز التي سعوا لإبرازها في كل احتفالاتهم وخاصة احتفال ترقية المماليك.

ويتمثل هذا الاحتفال في منح شهادة عتق، يبلغون بها مرتبة الجندية لتبدأ مرحلة جديدة في حياتهم وهي التدرج في الوظائف العسكرية، وبالتالي إعلان دخول المماليك في خدمة السلطان ضمن مجموعة جديدة منظمة ينتقل فيها من رتبة إلى أخرى حتى يبلغ المحظوظ منهم كرسي السلطنة، ولعل أبرز مثال على ذلك السلطان الظاهر بيبرس البندقداري.

---

1 – العيني، المصدر السابق، ص56.

2 – العمري، مسالك الأبصار، ص30.

3 – العيني، المصدر السابق ، ص65.

4 – عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص17– 18.

ويتضح أن الاحتفال بترقية المماليك كان في بعض مراحله لا يختلف عن بقية الاحتفالات المملوكية. في كل الاحتفالات المملوكية والمواكب السلطانية لمعاينة هيبة الدولة وقوتها وقوة سلاطينها.

وفي آخر الاحتفال يمد سماط سلطاني كبير، أما العنصر المشترك الأخير في كل الاحتفالات والمواكب هو خلع التشاريف التي كانت تقدم بهذه المناسبة للأمراء الجدد ولأعيان الدولة بحسب مراتبهم، وهذه العناصر جميعها ليست تقاليد جديدة أو من استحداث المماليك وإنما هي عادات موروثة عن الدولتين العباسية والفاطمية.

وهنا يجب الإشارة في البداية إلى أن هذا الاحتفال لا يخصص لمملوك واحد، بمعنى أنه ليس احتفالاً فردياً وإنما هو احتفال جماعي بمعنى يرتقي خلاله مجموعة من المماليك.

وخلال هذا الاحتفال العسكري كانت مجموعة من المماليك الكتابية من نفس الدفعة والمسماة أيضاً خرج تتحصل على شهادة عتق تضمن لهم حريتهم، وإنهاءهم فترة تكوينهم وتضمن لهم بالتالي الترقي السريع للوصول لأعلى المراتب ومنها السلطنة للمحظوظين منهم [1].

وقد كان الاحتفال يتمثل أساساً في أربع مراحل، أولها أنه كان احتفالاً جماعياً يضم مجموعة من المماليك دفعة واحدة، ثم تليه مرحلة أداء اليمين الذي يقدمه المماليك، أو الأمراء الجدد للسلطان، والمرحلة الثالثة حصولهم على شهادة الترقية أو كما تسمى شهادة العتق، وفي المرحلة الأخيرة الحصول على الوظيفة التي يختارها السلاطين للأمراء الجدد؛ لأن السلطان يختار عدداً يلحقهم بخدمته، ويطلق عليهم اسم الخاصكية [2].

ويبدأ هذا الموكب كما جرت العادة عند المماليك بطواف المماليك المعنيين بالارتقاء ويضم هذا الموكب أساساً المماليك ويكون بصحبة هؤلاء المماليك المرشحين لإمارة الحرس السلطاني والمكلف باللباس والمسمى أمير جندار، والحجاب، وحامل العلم ويسمى أيضاً أمير العلم وحامل الرايات وهو السنجقدار، والأشاقي، والجاويشية، وتعد كثرة الأعلام وتعددها عنصراً من عناصر شعائر الملك، ومظهراً من مظاهر البذخ وإبراز الهيبة، وكانت ترافق الموكب أثناء طوافه في

---

1 – النويري، المصدر السابق، ج30، ص13.

2 – السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص134.

القاهرة الموسيقى العسكرية التي كان هدفها إيقاع الرهبة في أوساط العامة، أما الموسيقى التي كانت ترافق الأعياد هي موسيقى يقوم بها أرباب الملاهي.

أما بالنسبة لاحتفال ترقية المماليك أو الاحتفالات والمواكب السلطانية، فكانت الموسيقى تُقدَّم من قبل موسيقيين مختصين من الجيش المملوكي ولهم آلات خاصة مثل الطبول والشبابة... الخ. أما عامة الناس فقد اقتصر دورهم على الفرجة، وكانوا أساساً مدعوين لتهيئة المدينة في مثل هذه المناسبات.

وفي آخر مرحلة من مراحل طواف الموكب يتّجه باتجاه مكان أداء اليمين وهو يمين الولاء والإخلاص للسلطان. أما مكان أداء اليمين والقسم للسلطان، فقد كان المدرسة الصالحية [1] ثم انتقل إلى المدرسة المنصورية [2].

وبعد الانتهاء من مرحلة أداء اليمين بالولاء للسلطان، يقام سماط سلطاني ضخم، ويمد هذا السماط في المدرسة التي يقام عليها أداء اليمين، وإقامة السماط في الاحتفالات المملوكية ليس من استحداث المماليك، وإنما هو من عادات الدول السابقة من العباسيين والفاطميين... الخ. غير أن العادة في مد السماط في الدول السابقة كان يقام داخل قصور الملوك والخلفاء في حين أن التجديد مع المماليك يتمثل في أن السماط أصبح مع هؤلاء الأتراك يقدم في المدرسة أو في مكان أداء اليمين لما كان يرمز له هذا المكان من قدسية [3].

بعد ذلك يرجع موكب المماليك باتجاه القلعة حيث أعدت الخلع والتشاريف للأمراء الجدد وتتمثل هذه الخلع أساساً في الشربوش [4] وحياصة [5] مزينة بالذهب والحلي يقدمها السلطان بنفسه ويلبسها للأمير الجديد، وترمز هذه الحركة لتجديد علاقة الولاء والأستاذية التي تربط السلطان

---

1 - سبب اختيار المدرسة الصالحية مرتبط بالقدسية للمكان التي أضفاها المماليك أنفسهم، باعتبار قبر الصالح أيوب موجود فيها. للمزيد المقريزي: السلوك، ج1، ص339/ السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص136- 137.

2 - تغير المكان من الصالحية إلى المنصورية يعود أساساً إلى تغلب طائفة المماليك المنصورية على الطائفة الصالحية. وقد كان لهذا الاختيار دوافعه وكل يصب في إطار اختراع المماليك لحكايا تخدم مشروعهم السياسي والبحث عن القدسية والشرعية لحكمهم. للمزيد السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص385.

3 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص219.

4 - الشربوش: هو القلنسوة وهي نوع من القبعة وتكون شعاراً للإمارة، ويرمز لارتقاء الملوك.

5 - الحواص: قطعة تشد حول الوسط وهي من المنح السلطانية وتكون من الذهب أو الفضة وتمنح للأمراء حسب رتبهم.

بهؤلاء الأمراء الجدد. ولعل رمزية هذه الخلع التي يمنحها السلطان للأمراء الجدد في الألوان التي تميزت بها وهما اللون الأزرق والأصفر.

أما آخر مرحلة من احتفال ترقية المماليك، فتتمثل في منح وثيقة أو شهادة العتق، وذلك بعد وصول موكب المماليك إلى قصر السلطان في قلعة الجبل، ويكون معتق المملوك هو أستاذه أما رفاقه المتخرجون معه فيسمون خشداشيته.

أما وثيقة التولية فإنها تضمن لهم الإمرة والحصول على إقطاع، وتختلف أهمية الإقطاع حسب رتبة الأمير، ومن شروط استحقاق الإقطاع إلى جانب عتق المملوك وحريته أن يكون بعد سن البلوغ، وأن يكون المترشح مسلماً ومعافى من كل عاهة أو عجز خلقي، وفي آخر الاحتفال يمنح السلطان ألقاباً للأمراء الجدد وهي ألقاب ذات صبغة دينية تبدأ بكلمة دين، مثل سيف الدين وحسام الدين... الخ.

ويلاحظ هنا أيضاً ما توصل إليه المماليك من جمع بين العادات والأسماء التركية وإضافة ألقاب ذات صبغة دينية لأسمائهم التركية، ولكل ذلك رموزه، فهم يسعون من وراء ذلك إلى اكتساب هذه الصبغة الدينية على مستوى الألقاب.

ويقوم السلطان بمنح شعار الوظيفة أو كما يسمى الرنك [1] ويكون الشعار حاملاً لصورة ترمز للوظيفة التي تولاها الأمير الجديد ،وقد كان السلطان يختار من هؤلاء الأمراء بعضاً منهم لتولي مناصب إدارية في الدولة، وذلك للتخلص من بعض كبار الدولة الذين أصبحوا يشكلون خطراً على الدولة.

وبخصوص الاحتفال بترقية المماليك السلطانية تجدر الإشارة إلى أن العادة بإقامة هذا الاحتفال قد انتهت بزوال دولة المماليك البحرية ووصول المماليك الجراكسة إلى الحكم.

ولعل زوال هذه العادة كانت سبباً من أسباب زوال دولة المماليك باعتبار أن هذا النظام كان يضمن لهم تربية دينية مدنية وعسكرية للمماليك وبزواله أصبح المماليك ذوي صفات سيئة فكثر بذلك الفساد والانحلال الأخلاقي [2].

---

1 – أحمد (عبد الرازق): الرنوك في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، 1991، ص78.

2 – قاسم عبده قاسم، بعض مظاهر الحياة اليومية، ص7– 8.

ثانياً – الاحتفالات السلطانية:

ونقصد بالاحتفالات السلطانية تلك الاحتفالات المرتبطة بشخص السلطان بعد اعتلائه عرش السلطنة، كشفائه من مرض أو عودته من الحرب منتصراً، وخاصة في تلك الحقبة التي كان الخطران الصليبي والمغولي يهددان أمن الدولة واستقرارها.

كان إبعاد خطر التتار عن مدينة الشام العاصمة الثانية لدولة المماليك، أو استرجاع مدينة كانت تحت سيطرة القوى الصليبية مناسبة احتفالية لما ترمز له من قوة وهيبة السلطان، وحرص سلاطين المماليك على الظهور بمظهر حماة الديار الإسلامية والمسلمين ،وذلك في إطار تدعيم شرعية حكمهم في مصر.

وبذلك كان رجوع السلطان لقلعته في القاهرة عاصمة ملكه بعد فتح حصن أو مدينة أو دفع خطر داهم مناسبة احتفالية هامة يُسر لها العامة والمماليك وكبار الأمراء، ويستعد الجميع لهذا الحدث بتهيئة المدينة لهذا الحدث السعيد بتزيين الأسواق والشوارع والدكاكين التي يمر بها موكب السلطان، وتخرج العامة لاستقبال السلطان المعافى أو المنتصر في إطار صاخب، والتي يظهر من خلالها مدى تعلق العامة بسلاطينهم والأهم من ذلك هيبة السلاطين وقوتهم [1].

وعند عودة السلطان من رحلة خارج مصر وخاصة من الشام بعد استرجاع مدينة من يد القوى الصليبية المتواجدة هناك، أو لدفع خطر التتار عن البلاد المجاورة، عندها يقع الاحتفال برجوعه مظفراً من الحرب آمناً سالماً ومنتصراً على العدو، فتعلن بهذه المناسبة الاحتفالات الصاخبة بعاصمة الملك بالقاهرة، فكان ينادي في القاهرة ومصر بتهيئة الشوارع والدكاكين، وخاصة في الأماكن التي يمر بها موكب السلطان ،وكلما كان السلطان أكثر شعبية كلما كان استعداد العامة واحتفالهم برجوعه أكثر تلقائية وأكثر اهتماماً [2]. مع العلم أنه في الغالب كانت السلطة تجبر العامة وتأمرهم بتهيئة المدينة استعداداً لاستقبال السلطان.

أما عن المظاهر الاحتفالية بعودة السلطان مظفراً لمقر حكمه، فتتمثل في استقباله في إطار حافل وصاخب يشارك فيه الخاصة والعامة، ويكون في هذا الاحتفال من الضخامة ما يرمز لمكانة السلطان وهيبته وتفوق قوته، وقد كان الاحتفال يقع في مرحلتين،ومكانين مختلفين: فيكون الأول في

---

1 – ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص330 و 543.

2 – المقريزي، السلوك، ج1، ص382.

شوارع القاهرة أثناء مرور السلطان شاقاً المدينة باتجاه قصره، ويحتشد العامة بالشوارع التي يمـر منها شاقاً المدينة، فيحتفلون به تعبيراً عن مشاعرهم وفرحهم بعودتـه سـالماً، ويمكـن أن نـسميه بالاحتفال العام الذي يشارك فيه عامة مصر وخاصتها. أما المرحلة الثانية مـن الاحتفـال فتكـون بقصر السلطان بقلعة الجبل وهو احتفال خاص؛ لأنه لا يحضره سوى الخاصة من الأمراء وكبـار موظفي الدولة الذين يحتفلون برجوع السلطان على طريقتهم الخاصة. وبدخول السلطان العاصـمة تفرش له الشوارع بشقف الحرير حتى باب قصره ويكون احتفالاً عظيماً.

وقد كانت العادة عند رجوعه من الحرب أن يسبقه أحد الأمراء ببـشارة النـصر وعـودة السلطان آمناً غانماً [1]، فتدق البشائر لهذا الخبر السعيد، فيسرع العامة لتزيين المدينة، وشـوارعها، ودكاكينها استعداداً لقدوم السلطان المنتصر في موكب شبيه بموكب التوليـة ،فيكـون مـن الأيـام المـشهودة [2]، ويتنـافس الجميـع حتـى أن الأمـراء كـانوا يتفننـون فـي نـصب القلاع [3].

وفي الليلة المقررة لوصوله يخرج الناس لاستئجار الأماكن التي يقضون فيها ليلهم استعداداً للفرجة، وهو مايظهر مدى اهتمام أهل مصر آنذاك بمعاينة موكب السلطان، ويُعبِّر عن هذا الشغف بضخامة وعظمة موكب السلطان وخاصة الهيبة التي فرضـها هـؤلاء الـسلاطين علـى العامـة لاستقبالهم استقبال المجاهدين الأبطال.

وتضرب الكوسات [4] بالقلعة والطبلخاناة [5] بدور الأمراء، ولا تضرب الموسيقى إلا بدور أمير الطبلخاناة، وهذه الموسيقى كانت تدق عند استقبال السلطان لما تحدثه من الرهبة والقـوة فـي نفوس العامة.

---

1 – ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص281 و 543.

2 – ابن دقماق، المصدر السابق، ص334.

3 – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص307. / المقريزي، السلوك، ج1، ص701.

القلاع: جمع قلعة فالراجح أن المقصود بها قلاع خشبية تزين بها الطرقات احتفالاً بمقدم الـسلطان والتـي يـسميها البعض أقواس النصر.

4 – الكوسات هي كما عرفها القلقشندي صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير، يدق بإحداهما على الأخر بإيقاع مخصوص، ومع ذلك طبول وشبابة. للمزيد القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص9.

5 – الطبلخانات: هي في الأصل لفظ فارسي تعني الفرقة الموسيقية في السلطانية. للمزيد محمـد دهمـان، معجـم الألفاظ التاريخية، دار الفكر، دمشق، 1991، ص106.

وفي يوم وصول السلطان يخرج عامة مصر قاطبة لاستقباله وعلى رأسهم القضاة والأعيان والأمراء، ويشق السلطان المدينة باتجاه القلعة في موكب حافل [1] وقد حملت علـــى رأســـه القبـــة والطير وهما من شعار الملك ورموزه، والتي سبق وتعرضنا لهما، وشعار الملك مـــن خـــصائص السلاطين ولا يحق لأحد استعماله في الموكب ويشق السلطان المدينة وهي في غاية الزينة، وتـــدوم الاحتفالات خمسين يوماً [2] .

ويبدو أن موكب السلطان في هذه المناسبة قد كان له ترتيب معين بدأ مع السلطان الظـــاهر بيبرس البندقداري، واعتاد بقية السلاطين من المماليك على إتباعه وهذا ما نفهمه مما ذكره النويري في نهاية الأرب خلال تعرضه للاحتفال بعودة الظاهر بيبرس للقاهرة على إثر انتصاره على التتـــار سنة 661 هـــ / 1262م عندما قال بصريح العبارة ((وعلى نهج بيبرس سار بقية السلاطين)) [3].

وغالباً ما كان سلاطين المماليك يبرزون قوتهم وانكسار عدوهم أمام العامة وهـــم يـــشقون القاهرة ((وأسارى التتار بين يدي المواكب ما بين ماشٍ وراكب وسناجقهم (وهي الرايـــات) بأيـــديهم منكوســـة وطبـــولهم علـــى أكتـــافهم معكوســـة، وأعنـــاقهم مغلولـــة، والأعـــلام الـــسلطانية منشورة)) [4].

ودخول السلطان على هذه الهيئة بحضور عامة مصر كافة، وأسرى التتار معه فيه نوع من القوة وبث الرهبة، ودورهم كان كحماة للإسلام وديار الإسلام، ويشق السلطان المدينـــة فـــي هـــذا الموكب المهيب من باب النصر باتجاه القلعة، وفي خدمته الأمراء والسلطان ((يمشي الهوينا وينظـــر هذا السرور الذي أقر له وطلع إلى القلعة بما نال من القصد)) [5] وقد اصطف المغنون على طـــول الدكاكين والشوارع من الرجال والنساء،ودقت لهم الطبول والزمور وسط دعاء الناس لهم وتهلـــيلهم بهذا النصر العظيم.

---

1 – الشجاعي، المصدر السابق، ص168.

2 – ابن أيبك الدوادار، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، نشر روبرت رويمـــر، القـــاهرة، د.ت، ج9، ص82./ النويري، المصدر السابق، ج30، ص82.

3 – المصدر السابق، ، ج30، ص83.

4 – المنصوري،التحفة المملوكية، ص82.

5 – الشجاعي، المصدر السابق ، ص168.

ويلاحظ هنا أن دق الطبول لا يقتصر على الأمراء وإنما كان العامة أيضاً يساهمون في هذا الاحتفال بالغناء والطرب ولكن ذلك كان يقوم به المغنون وأرباب الملاهي.

وعند وصول السلطان لقصره في القلعة تبدأ المرحلة الثانية من الاحتفال، فقد جرت العادة أن يقيم السلطان حفلاً خاصاً مع مماليكه وأمرائه احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة يظهر فيها أنواع اللهو والمرح، ويخلع فيها السلطان على أمرائه وسائر موظفي الدولة في حركة تعني تجديد ربط صلة الولاء وتوثيقها مع مماليكه الذين يمثلون سبب قوته [1] ولعلنا نتبين صورة هذا الاحتفال الذي أقيم في القلعة بعودة السلطان منتصراً على جيش التتار سنة 680 هـ / 1281م ((ولما قرت عين السلطان بهذه الأفراح المتتابعة، واجتنى ثمرات هذه المسرات اليانعة جميع الأمراء والأكابر ومقدمي العساكر، في مجلس اتخذه للأنس وأعده للهو والانشراح، فجلسوا للشراب ودارت عليه بالقمز الأكواس والأكواب... وخلع السلطان عليهم جميعاً وأعطاهم عطاءً واسعاً ومر ذلك اليوم في لهو، وسرور، وجذل، وحبور، واجتماع يبسط الآمال ومزاح يرضي الصدور)) [2] وقد جرت العادة في مصر المملوكية أن يستقبل السلطان عند عودته للقاهرة منتصراً بعد إخماد ثورة، أو عصيان أحد أمرائه بأقاليمها ، حيث انتشرت هذه الظاهرة وكان ذلك بسبب سعي بعض الأمراء إلى إعلان الخروج عن طاعة السلطان والتمرد أو حتى إعلان سلطنته.

كما تعرض المؤرخ الشجاعي لوصف الاحتفال بعودة السلطان سنة 690 هـ / 1291م مظفراً من دمشق بعد عزل الأمير حسام الدين لاجين الذي خرج عن طاعة السلطان [3]. ويشار هنا إلى استثناء تمثَّل في الاحتفال بعودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون للحكم في مناسبتين، فقد تعرض هذا الأخير للإبعاد عن السلطنة من طرف كبار أمراء المماليك، وكان ذلك في مناسبتين، أما الأولى فكانت سنة 668 هـ/ 1298م بسبب صغر سنه [4] وانفراد الأميرين كتبغا ولاجين بالحكم، ولدى عودته لعرش السلطنة احتفل العامة بقدومه بحفاوة لشدة ما كانوا يتكبدون من معاناة ممن كانوا قبله وعاد مرة ثانية للحكم [5] بعد أن أُبعد سنة 709 هـ / 1309م بعد استيلاء بيبرس

---

1 – ابن اياس، بدائع الزهور، ج1، ص544.

2 – بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص105.

3 – الشجاعي، المصدر السابق ، ص129.

4 – ابن اياس، بدائع الزهور، ج1، ص414.

5 – ابن اياس، بدائع الزهور، ج1، ص431.

الجاشنكير على الحكم، وقد استقبل السلطان الناصر بعد عودته للحكم للمرة الثالثة في احتفال عظيم شبيه بالاحتفال الذي يقام للسلطان لدى عودته منتصراً من الحرب أو بتولية سلطان جديد.

ولعل عامة أهل مصر قد بالغوا في الاحتفال بعودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون للحكم لقربه من الشعب وهو ما خلق علاقة حميمية غريبة بين هذا السلطان وأهل مصر، فكان الاحتفال برجوعه للسلطنة احتفالاً عظيماً لا مثيل له وقد ((ركب السلطان موكباً ارتجت له الأرض))[1].

كما ذكر ابن تغري بردي صورة الاحتفال برجوع السلطان الناصر محمد بن قلاوون لعرش السلطنة سنة 710 هـ / 1310م حيث ظهر من خلاله أنه احتفال فاق التوقعات برجوع السلطان منتصراً من الحرب ((فخرج الأمراء وجميع الناس قاطبة للقائه وكانت القاهرة ومصر ألا يتأخر منهما أحد فرحاً بقدومه وكان خروجهم في يوم السبت وأظهر الناس لعودته إلى الملك من السرور ما لا يوصف ولا يحدّ من الزينة وزينت القاهرة ومصر بأفخر زينة)) [2].

1- الاحتفال بمعافاة السلطان من المرض:

إذا ألمّ بالسلطان مرض ثم شُفي احتفل بذلك احتفالاً كبيراً، ويهتم بذلك الخاص والعام [3] فكانت تعلن البشائر بشفاء السلطان وينادي بتزيين الحواضر والمدينة [4] وتقام الزينة بهذه المناسبة لعدة أيام [5].

آ- الاحتفالات الشعبية:

---

1 - الشجاعي، المصدر السابق ، ص213. / ابن كثير، المصدر السابق ، ج14، ص15.

2 - ابن تغري بردي، المصدر السابق ، ج8، ص116.

3 - الشجاعي، المصدر السابق ، ص101.

4 - المقريزي، السلوك، ج2، ص520.

5 - الشجاعي، المصدر السابق ، ص101.

كان أهل مصر من عامة الناس يتنافسون ويتفاخرون في تزيين دكاكينهم، وشوارع مدينتهم في هذه المناسبة سواء كان ذلك من تلقاء أنفسهم للحصول على رضا السلطان أو بأمر من السلطة نفسها. وكان يظهر في هذه الزينة كل أنواع الترف والتباهي، فالناس يجتمعون لرؤيته في أماكن يستأجرونها خاصة لمعاينة موكب السلطان وهو ما ذكره المقريزي لدى حديثه عن ركوب السلطان بعد معافاته في سنة 697 هـ/ 1297م ((*وفي الحادي عشر من صفر ركب السلطان بعدما انقطع لما ألم به كسر يده نحو شهرين ونزل إلى الميدان ودقت البشائر، وزينت القاهرة ومصر، وكتبت البشائر إلى الأعمال بذلك وكان يوم ركوبه من الأيام المشهورة اجتمع الناس لرؤيته من كل مكان وأخذ أصحاب الحوانيت من كل شخص أجرة جلوسه نصف درهم فضة*)) [1].

اجتمع في هذه المناسبة أرباب الملاهي الذين كانوا يشاركون في إحياء هذه الليالي السعيدة بالغناء والطرب واللهو، ويذكر المقريزي مشهداً دقيقاً عن الاحتفال بمعافاة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة 737 هـ/ 1336م الذي كسرت يده إثر تقنطره عن فرسه عندما كان في نواحي قليوب يتصيد ((*ثم عوفي السلطان فتزينت القاهرة ومصر... وتفاخر الناس في الزينة بحيث لم تعهد زينة مثلها وأقامت أسبوعاً تفنن أهل البلد فيه بأنواع الترف... وقد اجتمع أرباب الملاهي في عدة أماكن بجميع آلات المغنى*)) [2].

ب- احتفالات الخاصة

أما عن مظاهر احتفال الخاصة ونقصد بهم الأمراء والمماليك بمعافاة السلطان من المرض، فقد كان هؤلاء يتنافسون أيضاً في إظهار سرورهم بشفاء السلطان، فكانوا يعملون الولائم ومما يذكر أن الأمير ملكتمر الحجازي سنة 741 هـ/ 1340م واحتفالاً بمعافاة السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون من كسر بيده، قام هذا الأمير بعمل نفط [3] كثير ((بسوق الخيل تحت القلعة فاجتمع الناس من كل جهة لرؤيته)) [4] وقد كان الأمراء يتنافسون في ذلك لأجل كسب رضا السلطان؛ لأن الأمراء كانوا رغم قوتهم يخشون من انقلاب السلاطين عليهم وخاصة منهم السلاطين الأقوياء.

---

1 - المقريزي، السلوك، ج1، ص831- 832.

2 - المقريزي، السلوك، ج2، ص318.

3- نفط: نوع من الألعاب النارية التي يطلقها الأمراء في الاحتفالات.

4 - المقريزي، السلوك، ج2، ص520.

وكانت الألعاب النارية تقام تحت القلعة مع اللعب بالرماح [1] كان يخلق نوعاً من الفرجة شبيه بالمهرجان لما يصاحبها من ((المغاني واللهو والخيالات)) [2] وأكثر من ذلك كان كل أمير يقيم الأفراح في بيته، وتتواصل الاحتفالات لعدة أيام، وتصحبها الموسيقى الجيشية، فتضرب الكوسات وكذلك طبلخاناة الأمراء ((ولم يبق أمير إلا وعمل في بيته فرحاً)) [3].

وقد كانت عادة السلطان في هذه المناسبة توزيع الصدقات من الخبز والملابس ((مع جمل من المال)) [4]. ويدخل ذلك في إطار كسب ولاء وعطف العامة، واستمالتهم، كما كان السلطان يخلع وكعادته على أمرائه بحسب رتبهم ويخلع على الطبيب الذي عالجه وساهم في شفائه.

2- ركوب السلطان لميدان اللعب:

اعتاد سلاطين المماليك الركوب في ميدان اللعب في إطار موكب ضخم، واحتفال مهيب، وقد كان هذا الموكب متميزاً عن بقية المواكب السلطانية لخصوصية المناسبة ومن أهم الألعاب التي كان يتجه إليها السلاطين لعب الكرة ((الصولجان)) [5] ، فقد كان السلطان يركب من القلعة باتجاه الميدان الكبير المخصص لممارسة الصولجان. كانت عادة السلطان أن يركب للعب الكرة بعد وفاء النيل أما عن عدد المرات التي يركب فيها السلطان للعب الكرة، فقد كان مرتبطاً بمدى شغف السلطان بهذه اللعبة، وعموماً كان السلطان ينزل ثلاث مرات في الأسبوع، ويكون ذلك ((ثلاث مرات متوالية في كل سبت)) [6]. ويكون ركوب السلطان لميدان لعب الكرة في أول النهار من باب الإسطبل، وهو في هيئة مشابهة لهيئته في ركوب يوم العيد ما عدا الحبتر [7].

---

1 - المقريزي، السلوك، ج2، ص520.

2 - الشجاعي، المصدر السابق ، ص101.

3 - المقريزي، السلوك، ج2، ص318.

4 - المقريزي، السلوك، ج2، ص520.

5 - الصولجان: نوع من أنواع الفروسية وقد عرفت ببلاد فارس منذ القرن الرابع قبل الميلاد. أما عن أول ظهور للعبة في بلاد الشام فقد كانت بعهد الخليفة هارون الرشيد. للمزيد المقريزي، السلوك، ج1، ص15- 16.

6 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص47. / المقريزي، الخطط، ج2، ص200. / العمري، مسالك الأبصار، ص30.

7 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص47.

وبالتالي فإن سلاطين المماليك كانوا يحرصون على الركوب إلى الميدان للعب الكرة، على الظهور بشعائر السلطنة، مثل ركوبه في موكب الأعياد ما عدا بعض الاختلاف المتمثل في غياب الجتر.

ويلاحظ في هذا الموكب ظهور العصائب السلطانية التي تتمثل في الرايات الصفر المنقوش عليها اسم السلطان إضافة إلى خيل السلطان، أما الموسيقى فكانت مصاحبة للموكب،والتي كانت تقرع لإيقاع الهيبة، وليس الطرب. كان السلطان محاطاً ببعض موظفيه الذين كانوا في خدمته مثل الركابدارية، والأوشقيان حيث كانت مهمتهم العناية بالخيل السلطاني الذي يمثل شعاراً من شعائر السلطنة في هذا الموكب، ويقدم لنا المقريزي والعمري وصفاً دقيقاً لموكب السلطان عند ركوبه إلى ميدان اللعب بالكرة ((وقد كانت عادته أن يركب للعب الكرة بالميدان برقبة، وهي تزركش ذهباً أطلساً أصفراً يعمل على رقبة الفرس من تحت أذنيه إلى نهاية العرف، ويكون قدامه اثنين من أوشاقيته [1] راكبين على حصانين أشهبين برقبتين، وكأنهما معدان لأن يركبهما، وعلى الوشاقين المذكورين قباوان أصفران من حرير بطرازين مزركش بالذهب وعلى رأسيهما قبعان مزركشان وغاشيته السرج محمولة أمامه وهي أديم مزركش بذهب ليحملها بعض الركابدارية قدامه وهو يمشي وسط الموكب، و يكون قدامه فارس يشبب بشبابة لا يقصد بنغمها الإطراب بل يقرع بمهابة سامعه ومن خلفه الخبائب، وعلى رأسه العصائب السلطانية، وهي صفر مطرزة بذهب بألقابه واسمه)) [2]. وقد كان السلطان يركب للميدان للعب الكرة في أول النهار، في حين كان يركب للقبق [3] كل يوم في وقت الظهر ويركب منه عند العشاء [4].

وكان يصحب السلطان في ركوبه للعب من المماليك خاصتهم وعامتهم، وكانوا يركبون في أعداد غفيرة، ويلبسون أحسن زي وأجمل لباس، ويكونون في أكمل شكل وأبهى منظر [5] وخيولهم في أكمل زينة مع معداتهم الحربية من سهام وأقواس، وكان من عادة السلطان عند ركوبه لميدان

---

1 - الأوشاقيان من استحداث السلطان الناصر محمد بن قلاوون. للمزيد المقريزي، الخطط، ج2، ص200.

2 - العمري، مسالك الأبصار، ص32/ المقريزي، الخطط، ج2، ص201.

3 - كلمة قبق مشتقة من التركية، والقبق حسب تعريف المقريزي ((عبارة عن خشبة عالية جداً تنصب في براح من الأرض ويعمل أعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة في قسميها وترمي بالسهام جوف الدائرة لكي تمر من داخلها أي غرض هناك تمريناً على إحكام الرمي ويعبر عن هذا بالقبق في لغة الترك)).

4 - المقريزي، الخطط، ج2، ص111.

5 - المقريزي، الخطط، ج2، ص111.

اللعب توزيع الخيول على جميع الأمراء، كما كان يفرق الذهب عليهم، وكانت الهدية من الخيول تختلف أهميتها حسب رتب الأمراء وقربهم من السلطان. فقد كان يخصص للجميع خيولاً ((مسرجة ملجمة بلا كنابيش بغضة خفيفة)) [1].

كما كان السلطان يخلع على الجوكندار ((الذي كان يحمل جوكان السلطان عند لعب الأكرة أو الصولجان)) وكل من يكون في خدمته في هذا الموكب [2].

وكان السلطان يكافئ ويخلع على كل أمير يصيب القبق، وكانت هذه الخلعة تليق بكل أمير، كل حسب مقامه ورتبته [3]. وقد كان خروج السلطان والمماليك للعب أشبه بمهرجان لم يكن للعامة دور فيه سوى الفرجة فقط.

ويبين المقريزي بوضوح مظاهر الاحتفال وركوب السلطان عندما رسم لظاهر بيبرس البندقداري سنة 675 هـ/ 1356م يلعب القبق في عرض هائل بحضور عدد من رسل الروم ((*العساكر بكاملها في يوم واحد لبسوا أجمل العدد، وقصدوا السلطان بركوبهم في يوم واحد حتى لا يستعير أحد من أحد شيئاً*)) [4].

ونلاحظ هنا سعي المماليك لإبراز تفوقهم العسكري، وخاصة دورهم في إبعاد وصد الأخطار الداهمة من المغول والصليبيين .

وبالتالي فإن اهتمام المماليك بهذا النوع من الألعاب حقق لهم أهدافاً متعددة في الوقت نفسه، وهي الترفيه، واللهو، والرياضة، والتدرب على فنون الحرب، وأيضاً إبراز أو استعراض القوة العسكرية ومهارة المماليك الحربية، باعتبار إقامة هذه الألعاب ترتكز على الاستعراض.

وفي آخر مرحلة من اللعب كانت العادة أن يختم اللعب بمد سماط، ويكون هذا السماط الذي تكون فيه جميع أنواع المأكولات والحلويات عندما يكون نصب القبق بمناسبة ختان ابن السلطان،

---

1 – العمري، مسالك الأبصار، ص31.

2 – ابن أيبك الدوادار، الدر الفاخر، ج9، ص357.

3 – النويري، المصدر السابق، ج29، ص102./ ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص298./ المقريزي، السلوك، ج1، ص626.

4 – المقريزي، السلوك، ج1، ص611.

ويحضر هذا السماط كل اللاعبين من المماليك [1]. كما كان السلطان يجبر أحياناً الأمير المهزوم بأن يمد سماطاً على حسابه الخاص وباستدعاء كل المتبارين.

يظهر من خلال الألعاب مدى ثراء دولة المماليك [2]، لارتفاع تكلفة المعدات الحربية، ولباسهم الخاص، والخلع التي كان السلطان يمنحها لهم أثناء اللعب دون نسيان دورهم في إدخال لعبة القبق ذات الأصل التركي إلى بلاد الإسلام.

3-الإحتفال بخروج السلطان للصيد والنزهة:

كان لسلاطين المماليك اهتمام خاص بالصيد، فكانوا دائمي الخروج في حلقات ينظمها السلطان للترفيه؛إذ يعتبر الصيد وسيلة لهو باعتبارها تحفظ صحة المزاج، كما أنها رياضة وتمرين على الركض، والكر، والفر، وتعويد على الفروسية، وكذلك تمرين على الدقة في الرمي والضرب بالسيف وتمرين الخيول واختبار صبرها وقوتها.

ومن دلائل اهتمام سلاطين المماليك بالصيد أنهم كانوا يخرجون لسرحات الصيد في انتظام وفي أوقات معينة من السنة التي غالباً ما تكون في أيام الربيع كما يذكر العمري [3] ((ومن عادة هذا السلطان الخروج إلى الصيد مرات في السنة[4])) كما اعتاد سلاطين المماليك الخروج للصيد على إثر عودتهم من الحروب، كوسيلة للترفيه والتنزه؛ لأنه ((نزهة الملوك إلى الصيد)) [5] فالسلطان المظفر قطز قتل على يدي الأمير بيبرس البندقداري عندما كان يتصيد بمنطقة القصير في طريق عودته للقاهرة على إثر الانتهاء من معركة عين جالوت عندما ((وثب عليه أقوام من الأمراء فقتلوه في الصيد)) [6].

وقد اهتم بقية سلاطين المماليك بالخروج إلى الصيد بانتظام وكان لهذا الاهتمام درجات وذلك حسب درجة ميل السلطان للصيد، فبالغ بعضهم في الخروج إلى لصيد والتنزه مما أثار

---

1 - بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص134.

2 - المصدر السابق، ص134.

3 - العمري، مسالك الأبصار، ص31.

4 - ابن شاهين، المصدر السابق، ص127- 128.

5 - بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص45.

6 - المصدر السابق، ص45.

حفيظة الأمراء وانتقاداتهم في بعض الأحيان، فقد ((أخذ الأمراء على السلطان الملك الأشرف شعبان تمكينه الخدم والنساء من التصرف في المملكة والتهتك في التنزه والصيد)) [1].

أما الخروج إلى الصيد فقد كان يقع في إطار حلقات للصيد بأمر من السلطان، ويضم عدداً كبيراً من الأمراء والأجناد الذين يصحبون السلطان ، وقد كانوا أمهر الصيادين في صفوف الأمراء. أما عن تنظيم حلقات الصيد فقد كانت تقع في البرية في نواحي عدة من القاهرة وبلاد الشام.

أما عن هيئة السلطان في الخروج للصيد، فيبدو من خلال المصادر التاريخية أنه كان يخرج دون تكلف في إظهار شعائر السلطنة [2] من جتر أو غاشية، وبدون رقبة، ولا العصائب التي كانت تميز خروجه في موكب العيدين والميدان. وإنما ((كان الشعار في موكبه السائر فيه جمهور مماليكه)) [3].

ولعل خروج السلطان للصيد بدون تكليف وبدون شعائر السلطنة، ربما يعود إلى طبيعة المناسبة وأكثر من ذلك ربما يعود ذلك إلى وقت خروج السلطان للصيد الذي كان يتأخر إلى الليل ((فإذا جاء الليل حملت أمامه فوانيس كثيرة ومشاعل)) [4].

ويكون نزول السلطان في دهليز يعد بشكل خاص لإقامته أثناء فترة قيامه بالصيد، والدهليز هنا نوع من الخيمة السلطانية التي تصحب السلطان في الصيد وتعدُ من شعائر السلطنة؛ لأنها خاصة بالسلطان ويكون مسير السلطان من قلعته ليلاً باتجاه الدهليز في المكان الذي اختير للصيد وقد حملت أمامه فوانيس كثيرة ومشاعل، ويدخل السلطان الدهليز في موكبه الذي تعود مصاحبته في رحلات الصيد في جو مهيب يعكس مكانة السلطان وهيبته وسط مماليكه.

ويقدم لنا كل من القلقشندي والمقريزي وصفاً دقيقاً ومتشابهاً لدهليز السلطان الذي يقام في سرحات الصيد ((وهي خيمة مستديرة متسعة ثم منها شقة مختصرة إلى لاجوق، وبدائر كل خيمة من جميع جوانبها من داخلها سور من خشب، وفي صدر اللاجوق قصر صغير من خشب ينصب

---

1 – المقريزي، السلوك، ج2، ص713.

2 – المقريزي، الخطط، ج2، ص200. /القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص48.

3 – المقريزي، الخطط، ج2، ص200.

4 – المقريزي، الخطط، ج2، ص200./ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص48.

للمبيت فيه، وينصب بإزاء الشقة حمام بقدر من رصاص، وحوض على هيئة الحمامات بالمــدن إلا أنه مختصر)) [1].

إن خروج السلطان للصيد كان يدوم لأكثر من يوم، ولم يكن الـسلاطين يقطعــون رحلــة الصيد المخصصة للتنزه واللهو، إلا إذا ورد خبر بوجود خطر داهم وخاصة خطر التتار الذي كــان يهدد بلاد الشام، فكان السلطان يضطر لقطع رحلته والرجوع فوراً للقلعة في القــاهرة والاســتعداد للخروج للتصدي لأي خطر داهم [2].

أما عن خصوصية موكب السلطان للصيد فقد تميز بخروج وركوب عدد كبير ((من الأمراء الأكابر، والأصاغر، والخواص، والغرباء، وخواص مماليكه)) [3] باعتبار أن السلطان عند ركوبــه للصيد لم يكن يتكلف في إظهار شعائر السلطنة التي كانت تميز لباسه الخاص. وقد كان عدد هؤلاء الأمراء والأجناد كبيراً ليبلغ في بعض الأحيان الآلاف.

ويسير في موكب السلطان هذا جمهور أمرائه ومماليكه،وكان شعارهم أن يكون في مقدمتهم مقدم المماليك، أما الأستدار، وكما عرفه العمري، فقد كانت إليه ((أمر بيوت الـسلطان كلهــا مــن المطابخ والشراب خاناه، والحاشية، والغلمان، وهو الذي يمشي بطلــب الـسلطان فــي الـسرحات والأسفار)) [4].

وبالتالي كان هذا الموظف يترأس بقية الموظفين الذين كانوا يقومون بخدمة الـسلطان فــي موكبه وفي إقامته أثناء الصيد، من السلاحدارية، والطباردارية، والجاويشية [5]، الذين كانوا يحفون بموكب السلطان أثناء مسيره نحو الدهليز بمكان تصيده، كمــا كــانوا يقومــون بخدمــة الـسلطان وحراسته ليلاً في شقته الخاصة بالدهليز. كان هذا الموكب محكم التنظيم حيث إنه يشتمل على كــل ما يحتاجه السلطان وأمرائه في سفرهم من ((الأطباء، والكحالين، والجرائحيــة ، وأنــواع الأدويــة والأشربة والعقاقير وما يجري مجرى ذلك)) [6]. خاصة عندما كانت تقع بعــض الحــوادث أثنــاء

---

1 – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص48. / المقريزي، الخطط، ج2، ص200.

2 – المقريزي، السلوك، ج1، ص601. /ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص104.

3 – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص48.

4 – العمري، مسالك الأبصار، ص57.

5 – المقريزي، الخطط، ج2، ص200. / القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص48.

6 – André Clot, L'Empire des escalves, 1989, P. 108

الصيد وقد كان السلاطين والأمراء يصحبون في موكبهم أيضاً أنواع الطيور التي يصطادون بهـا، وكذلك الفهود المدربة التي يصطادون بها الوحوش والغزلان.

هذا وقد جرت العادة، أنه بعد أيام من إقامته في الصيد والتنزه وظفره بصيده، يرجع السلطان للقلعة في القاهرة مقر حكمه، فتكون عودته في موكب عظيم غير الذي خرج فيه أول مرة بقصد الصيد، وتكون هيئته في الركوب عند الرجوع للقاهرة ((على هيأة ركوبه لصلاة العيد بالمظلة وغيرها)) [1] من شعائر السلطنة. وربما يكون ذلك احتفالاً بظفره في الصيد؛لأن رجوعه إلى القاهرة لم يكن في وقت متأخر من الليل مثلما كان خروجه منها.

وقد كانت عادة السلطان عند ركوبه للصيد الإفاضة بالخلع والهبات على الأمراء والمماليك الذين شاركوا في حلقات الصيد [2] ويكون ذلك أثناء الصيد أو على إثر الانتهاء منه.
وهذه الخلع التي كان يتحصل عليها الأمراء من السلطان أثناء الصيد كانت بمثابة المكافأة على مهارتهم في الصيد، وعلى فروسيتهم كما يمكن اعتبارها حركة من السلطان ترمز لاستمرار ولاء أمرائه له.

أما المنتفعين بالهبات والخلع السلطانية، فقد كانوا من صنف الأمراء، والموظفين الذين كانوا في خدمة السلطان أثناء الصيد. ((وربما أنعم بالخيول على ذوي السن من أكابر الأمراء عند الخروج إلى الصيد ونحوه)) [3].

كانت الخلع تختلف أهميتها وقيمتها باختلاف رتب الأمراء ومكانتهم ((للكبير كبير وللصغير صغير، كل واحد على قدره)) [4]. وعن طبيعة هذه الخلع، فقد كانت تتمثل في منح السلطان لأمرائه الأموال والذهب، وكذلك الخيول المسرجة والخلع والتشاريف، أما بالنسبة للتشاريف، فإنه كلما تمكن أمير من الحصول على شيء مما يصيده خلع عليه السلطان، فإذا تمكنوا من صيد الوحش

---

1 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص48.

2 - بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص133- 231.

3 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص56.

4 - العمري، مسالك الأبصار، ص73.

والغزال والنعام فقد كان لكل ((من أحضر صيداً قباءً مسنجباً بما يناسب خلعه مثلـه للكبيـر كبيـر وللصغير صغير)) [1].

ويتضح من خلال ما ورد في العمري حول خلع التشاريف أن هذه الخلع كانت تتمثل أساساً في القباء، وهو نوع من الملابس المملوكية، يتمثل في قفطان ضيق الأكمام [2] وتختلف قيمـة هـذا القباء بحسب رتب الأمراء.

وقد كانت تكلفة الصيد مرتفعة باعتبار قيمة هذه الخلع والهبات والهدايا التي كـان يقـدمها السلطان للأمراء مكافأة لهم على ما يحصلون عليه في صيدهم، وقد رأينا أن هذه الخلع كانت تتمثل أساساً في الخيول المسرجة ذات الكنابيش المذهبة، ترتفع قيمة هذه الخلع كلما كان الأمير في رتبـة أعلى ولعل ذلك يدل على اهتمام المماليك بالخيل والفروسية.

وتشير بعض المصادر التاريخية ومنها العمري في كتـاب مـسالك الأبـصار أن خـروج السلطان إلى صيد كانت أكثر تكلفة خاصة إذا مر السلطان في صيده بإقطاع أمير كبير، فكان مـن عادته عندها أن يقدم له ((من الغنم، والأوز، والدجاج، وقصب السكر، والشعير ما تسمو همة مثلـه إليه فيقبلها منه وينعم عليه بحلقة كاملة وربما أمر لبعضهم بمبلغ من المال)) [3].

وتكلفة خروج السلطان إلى الصيد تدل على مدى ثراء دولة المماليك وهذا ما ساعدهم فـي إنفاق الأموال الكثيرة على رحلات الصيد، كما كان السلطان ينعم على حملة الجوارح وعلـى بقيـة الغلمان [4] الذين كانوا في خدمته.

لم يمارس المماليك الصيد كوسيلة لهو أو نزهة فقط إنما مارسـوها كرياضـة وتـدريب باعتبار تكوينهم العسكري، ووظيفتهم كجنود واستعدادهم الدائم لصد أي خطر طارئ.

---

1 – مسنجباً: تعني أنه كان من فرو خاص وثمين. وللمزيد العمري: مسالك الأبصار، ص73. المقريزي: الخطط، ج2، ص288.

2 – دهمان، المرجع السابق، ص121.

3 – العمري: مسالك الأبصار، ص31.

4 – وهم الغلمان في الطشتخاناة (أي المهتمين بطعام السلطان) والشرابخاناة (المكلفين بالعناية بتوفير كافـة أنـواع الشراب الذي يحتاجه السلطان). والفراش خاناه (وهم المكلفين بتهيئة مكان نوم الـسلطان. للمزيـد العمـري: مسالك الأبصار، ص73.

الفصل الثالث

الأعياد المصرية

أولاً- الأعياد الموروثة

1- وفاء النيل وكسر الخليج:

يعد نهر النيل أو كما يسمى أيضاً ((البحر)) نظراً لاتساعه واهب الحياة وشريانها بالنسبة لمصر والمصريين عامة؛ لأن هذا البلد يشكو من قلة وشح مياهه وأمطاره.

ونظراً لأهمية مكانة النيل فقد اهتم المصريون منذ العصور القديمة وحتى في العصور الوسطى بهذا النهر فرسموا له صورة طغى عليها الجانب الخيالي، والقدسي، والطريف أيضاً. فمنها قولهم إن نهر النيل نهر من أنهار الجنة وأنه ينبع من جبل القمر. كما وسموه بأنه نهر مؤمن [1]؛ لأنه يهب الحياة ويخصب الأرض عند فيضه. ونسبوا إليه العجائب والخوارق [2].

---

1 - المقريزي، الخطط، ج1، ص50- 51.

2 - ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص157.

Kramers (J. H). S V, ALNil. El, T VIII, 1983, P42.

يرتبط النيل بعادات وتقاليد قديمة جداً ذات صبغة دينية ترجع إلى التاريخ اليوناني المسيحي، والتي تتمثل في إلقاء فتاة تسمى بعروس النيل كقربان، ويزعمون أن النيل لا يفيض إذا لم يفعلوا ذلك [1]. وقد أبطل المسلمون هذه العادة منذ فتح مصر.

وفي عصر سلاطين المماليك لم يتراجع الاهتمام بنهر النيل من حيث الاهتمام بفيضانه والاحتفال به كمناسبة لها أهميتها العظيمة، والاهتمام بحفر الخلجان والسدود. وقد ارتبط بنهر النيل عيد كان يعد من الاحتفالات العامة بمصر. وهو وفاء النيل وكسر الخليج.

أ- وفاء النيل:

كان للنيل موسم فيضان أو زيادة في كل عام، وتكون الزيادة في الصيف، ويكون أقصى ارتفاع له في شهر بؤونه من أشهر القبط.

أما الوفاء فمعناه بلوغ مياه نهر النيل الحد أو المنسوب (المقدار) الكافي لري الأراضي الزراعية ويسمى ذلك وفاء النيل وقد كان ذلك مناسبة هامة بالنسبة للسكان وخاصة منهم الفلاحين لأنه يبشر بخصوبة العام، وكذلك بالنسبة للسلطة؛ لأنه يعطيها فرصة الترفيع في الجباية واستخلاصها التي تمثل مصدر ثروة مصر، وقد ورد ذكر ذلك في قول السيوطي ((*إنه ليس في الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل ولا يجيء من خراج غلة زرعه ما يجيء من خرج غلة زرع النيل*)) [2].

أما الحد أو المنسوب الكافي لري الأراضي الزراعية الذي به يكون وفاء النيل، فإنه بلغ في عصر سلاطين المماليك ستة عشر ذراعاً، وهو بالتالي يمثل أحسن مستوى للفيضان أو لزيادة مياه النيل. ويساوي الذراع 50.4 سنتمتراً [3]. ويقول القلقشندي: إنه ((*إذا انتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعاً ففيه تمام خراج السلطان وأخصب الناس*)) [4].

---

1 - ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص157.

2 - السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص355.

3 - André Clot, L'Empire des esclaves, P 329

4 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص296.

وإذا زاد المستوى ارتفاع المياه على ستة عشر ذراعاً أي الوفاء، فإن ذلك يكون سـبباً فـي ضرر الأرض واستبحارها [1]. أما إذا نقص عن الستة عشر ذراعاً فتكون المجاعة. وكان مـستوى ارتفاع النيل يقاس بواسطة المقياس الموضوع بجزيرة الروضة [2]. أما المقياس فيتمثل في ((عمـود رخام أبيض مثمن في موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه)) [3]. وهذا العمود مفـصل علـى اثنين وعشرين ذراعاً. وكل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قـسماً، أو كمـا تـسميه المـصادر بالأصابع، ما عدا الاثني عشر ذراعاً الأولى، فهي مفصلة على ثمان وعشرين إصبعاً لكل ذراع [4] والأذرع الأولى هي السفلى.

ولمقياس النيل تاريخ طويل؛ لأنه جدّد عدّة مرات قبل الإسلام وبعده، وكان المشرف علـى مقياس النيل بجزيرة الروضة يسمى صاحب المقياس، ومهمته مراقبة ارتفاع منسوب مياه النيل فـي أيام الزيادة. ويظهر هنا اهتمام السلطة المملوكية بالنيل وزيادته من خلال الاهتمام بتعيين موظـف خاص يهتم بمراقبة زيادة النيل يوماً بيوم، وإجمالاً كان المصريون يهتمون بتتبع مقدار زيادة النيـل وفيضانه.

كان يؤخذ قاع النّهر منذ اليوم السادس والعشرين من شهر بؤونه القبطي ، ويعتمـد ذلـك كأساس تحسب عليه الزيادة ومقارنة الزيادة بين السنة السابقة والسنة الحالية، وكان صاحب المقياس يقوم بقياس مقدار زيادة مياه النيل ((كل يوم وقت العصر)) [5] ثم ينادي من الغد بتلك الزيادة بمقـدار الأصابع دون ذكر أو تصريح لعدد الأذرع حتى لا يقع التشويش بين الناس إذا تأخر الفيضان عـن موعده خوفاً من الجدب، وبالتالي خوفاً مما يمكن أن يقوم به الفلاحون من الاحتكـار والتـشويش. وللنداء على زيادة النيل أثر هام على عامة الناس والدولة معاً؛ لأن الجباية والخراج مرتبطان بوفاء النيل.

في حين كان صاحب المقياس يُطلع بشكل يومي، وبالتّفصيل أهم موظفي الدولـة وأعيانهـا على مقدار زيادة النيل ، وكان ((يكتب كل يوم رقاعاً لأعيان الدولة من أرباب الـسيوف والأقـلام

---

1 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص296.

2 - ابن إياس، نزهة الأمم، ص76.

3 - ابن جبير، الرحلة، ص29.

4 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص289./ ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص160.

5 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص293، 299.

كأرباب الوظائف من الأمراء وقاضي القضاة من المذاهب الأربعة، وكاتب السر، وناظر الخاص... فيذكر زيادته في ذلك اليوم من الشهر العربي وموافقته من القبطي من الأصابع وما صار إليه من الأذرع)) [1] ومقارنته بزيادة العام الماضي، ولا يقع إعلام عامة الناس بذلك إلا إذا وفى النيل ستة عشر ذراعاً، فيقع حينئذ ((التصريح في المناداة في كل يوم بما زاد من الأصابع وما صار إليه من الأذرع ويصير ذلك مشاعاً)) [2].

وفي يوم محدد يقاس قاع النهر ليكون أساساً تحسب عليه الزيادة، ويبدأ إعلام الناس بمقدار الزيادة منذ اليوم التالي، وفي عصر كل يوم يقيس المشرف على مقياس النيل في جزيرة الروضة مقدار زيادة مياه النيل لكي يعلنها المنادون في الطرقات والأسواق حتى يطمئن الناس. ويسمى هؤلاء المنادون (منادوا البحر) [3] ويبدو دورهم مشابهاً لدور وسائل الإعلام.

ويبلغ النهر حدّ الوفاء عادة في شهر مسري من الشهور القبطية، ويكون هذا الحدث مناسبة هامة وعيداً تقام بمناسبته الاحتفالات الكبرى التي يشارك فيها العامة من الناس، وكذلك الدولة ممثلة في السلطان والأمراء والقضاة وأعيان الدولة؛ لأن فيضان النيل ووفاءه لا يهم العامة فقط. فإذا وفى النيل تهيأ الجميع للاحتفال بوفائه الذي يشترك جميع المصريين في الاحتفال به بمختلف دياناتهم وطوائفهم وطبقاتهم.

وحين يكمل النهر ستة عشر ذراعاً (علامة الوفاء) يبدأ منادوا البحر بالتصريح بعددها بالأذرع وعلامة الوفاء أن يسدل الستار الخليفي على السباك الكبير في صدر مبنى القياس بجزيرة الروضة، فإذا شاهده الناس استبشروا خيراً [4]. بحيث يخرج الناس لتهيئة المدينة لهذا الحدث فيوقدون القناديل والشموع ويحولون الليل إلى نهار.

ومثله مثل بقية الأعياد الدينية لا يخلو الاحتفال بهذا العيد من الإيقاع والأغاني، إلى جانب تناوب مجموعة من القراء تلاوة القرآن في تلك الليلة في دار المقياس [5] وقد جرت العادة في

---

1 - المصدر السابق، ص293.

2 - المصدر السابق، ج3، ص293.

3 - Dopp. L'Egypte au commencement du quanzieme siècle, 1975, P. 20.21

4 - ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص297.

5 - قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص125. / سعيد عاشور عبد الفتاح، المجتمع المصري، ص199.

عصر سلاطين المماليك أنه في صباح اليوم التالي من وفاء النيل يمدّ سماط حافل بأنواع اللحوم المشوية والفاكهة والحلوى التي كان يتخاطفها العامة من الناس [1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الاحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج قد اعتنى الفاطميون به قبل المماليك وعلى نفس النهج سار سلاطين دولة المماليك.

ب- الاحتفال بكسر الخليج:

إثر الاحتفال بوفاء النيل يقع الاحتفال بكسر سدّ الخليج؛ وهو من أهم مظاهر الاحتفال بوفاء النيل.ويكون الاحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج على مرحلتين: فتكون الأولى بتخليق المقياس ثم كسر الخليج. وكان يقع الاحتفال بهما في نفس اليوم خلافاً لما كان في عهد الفاطميين حيث كان كسر الخليج بعد تخليق المقياس بثلاثة أيام [2].

أما بالنسبة لمظاهر الاحتفالات بكسر الخليج فتتمثل في اعتناء العامة من أهل مصر بإحياء هذا العيد بما يظهر فيه من أنواع اللهو والطرب، فقد ذكر القلقشندي أنه ((*إذا وفى ستة عشر ذراعاً... كسر خليج القاهرة، وهو يوم مشهود وموسم معدود ليس له نظير في الدنيا*)) [3]يخرج فيه العامة للفرجة على موكب السلطان في هذا اليوم لكسر الخليج أما بالنسبة للاحتفالات الرسمية بكسر الخليج فقد كانت العادة أن يخرج السلطان أو من ينوبه بصحبة أعيان الدولة وأمرائها من قلعة الجبل لينزلوا باتجاه النهر حيث يركبون المراكب.

وقد كانت المراكب التي يخرج فيها السلطان مع أعيان الدولة صنفين وهما: الحراقة والذهبية [4] وقد أعدت هذه المراكب خصيصاً لركوب السلطان في مثل هذه المواكب، وكانت تزين بالذهب والأعلام، وكان موكب السلطان يخرج بمصاحبة الطبول والألعاب النارية.

---

1 - المقريزي، السلوك، ج2، ص483.

2 - القلقشندي،صبح الأعشى، ج3، ص512.

3 - المصدر السابق، ج3، ص289- 290.

4 - الحراقة: كما ورد بمعجم الألفاظ التاريخية لمحمد أحمد دهمان ص60 هي سفينة كبيرة حربية تحمل الأسلحة النارية أما الذهبية: فهي السفينة السلطانية.

وتجمع المصادر التاريخية على أن هذا اليوم من الأيام المشهودة [1] وفيه ((يركب الملك في خواص دولته الحراريق المزينة إلى المقياس)) [2]. ومن ثم يتوجه هذا الموكب إلى القياس حيث تقام عملية تخليق المقياس بعد الفراغ من السماط الذي يمد بهذه المناسبة.

أما عملية تخليق المقياس فتتمثل في دهن عمود المقياس بعطر يتمثل في زعفران وقعت إذابته في ماء الورد ولا يقوم السلطان أو نائبه بعملية التخليق وإنما يوكل السلطان المسؤول عن المقياس أو صاحب المقياس الذي يرمي بنفسه في فسقية الماء ليخلق عمود المقياس يشار إلى أن عملية التخليق مرتبطة بوفاء النيل، فإن لم يوف النيل فإنه يقع كسر الخليج دون تخليق المقياس [3]. ويخلع السلطان بهذه المناسبة على صاحب المقياس و ((على من له عادة بذلك)) [4]. ثم يركب السلطان ومن معه الذهبية وحولها مراكب الأمراء المزينة، وقد امتلأت صفحة النيل بعشرات المراكب والقوارب التي تحمل المتفرجين السائرين وراء موكب السلطان، حتى يصل الجميع إلى فم الخليج أي موقع السد [5].

كما يذكر بعض من زار مصر من الرحالة أن السلطان كان يشارك في كسر السد بأن يضرب بمعول خاص صنع من ذهب، ثم يركب بعد الانتهاء من ذلك ويعود إلى قلعته.

يختلف موكب السلطان في هذا اليوم، يوم كسر الخليج عن بقية المواكب الأخرى التي تظهر فيها شعائر السلطنة بوضوح مثل مواكب الأعياد الدينية ومواكب الألعاب، فقد كان السلطان يخرج في موكب كسر الخليج بدون مظلة ولا غاشية وغير ذلك من مظاهر الملك [6].

كما جرت العادة في هذه المناسبة بكتابة البشائر بوفاء النيل إلى سائر أقطار المملكة [7]. وليس فقط داخل القاهرة، وهي في الأساس بشارة بوفاء النيل وأكثر منها استحقاق الخراج. فقد

---

1 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص290.

2 - السيوطي، حسن المحاضرة: ج2، ص349.

3 - ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص424.

4 - السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص349.

5 - قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص53.

6 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص47.

7 - القلقشندي،صبح الأعشى، ج3، ص290./ ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص74.

((جرت العادة أن يرسل السلطان بشيراً بذلك إلى البلاد لتطمئن القلوب وهذه عادة قديمة)) [1].

ومثلما كان فيضان النيل وزيادته سبباً في إرواء الأراضي وإعلان الأفراح والاحتفال بهذه المناسبة كان انحباسه سبباً في وقوع التشويش والاضطرابات، فإذا تأخر أو توقف عن الزيادة كان سبباً في تشويش العامة خوفاً من الجفاف والغلاء؛ لأن عدم زيادة النيل في موعده أو نقصانه عما هو مطلوب كانت نتيجته الحتمية ارتفاع الأسعار ووقوع المجاعة. وهو ما يدفع الناس للخروج من تلقاء أنفسهم أو بأمر من السلطان إلى المقياس بالروضة، أو إلى جامع عمرو بن العاص، أو الجامع الأزهر، أو إلى الصحراء [2] بصحبة القضاة للاستسقاء والدعاء، وتلاوة القرآن طلباً للوفاء. كما كان ينادي في الناس بالصوم لمدة ثلاثة أيام [3]. مع الإكثار من الابتهال والدعاء. وهو ما يؤكده ابن إياس حيث يقول: إنه في هذه السنة 696 هـ / 1296م *((وقع من الحوادث العظيمة أن النيل بلغت زيادته إلى أول توت خمسة عشر ذراعاً وثمانية عشر إصبعاً ثم هبط ولم يزد بعد ذلك، فشرقت البلاد ووقع الغلاء بمصر وأعماله،ا وانتهى سعر القمح إلى مئة وسبعين درهماً ، وكذلك الفول. وبلغ الرطل من اللحم إلى سبعة دراهم... فلما اشتد الأمر على الناس أكلوا القطط والكلاب والحمير والبغال والخيل حتى قيل أبيع كل كلب بخمسة دراهم، وكل قط بثلاثة دراهم ولطف الله تعالى بأهل مصر ،فأرسل عليهم جراداً كثيراً فأكل الناس منه قاطبة وحصل به غاية النفع واستمرت هذه الشدة على الناس سنة كاملة))* [4].

كما كان أهل مصر يصلون طلباً للهبوط أحياناً؛ لأن زيادة النيل فوق الستة عشر ذراعاً كانت يمكن أن يتسبب في تخريب الأراضي الزراعية ووقوع أضرار جسيمة، فكان السلطان وتبعاً لذلك يأمر في نفس اليوم ((بفتح السد بعد العصر خوفاً من قوة عزم الماء أن يقلب السد)) [5].

---

1 – السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص366.

2 – ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ص8.

3 – المصدر السابق، ص76.

4 – ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص390.

5 – المصدر السابق، ج1، ص448.

ومن ذلك ما حدث سنة 761 هـ/ 1359م عندما زاد النيل زيادة كبيرة فوصل إلى حدود أربعة وعشرين ذراعاً، فخرج الناس للدعاء بالجوامع والمزارات يدعون لهبوط مياه النيل لما سيقع من الضرر على الناس ولما وقع من انقطاع ((الطرقات على المسافرين حتى امتنعوا عن السفر)) [1].

كما نشير هنا أن أهل الذمة في مصر كانوا يشاركون المسلمين في خروجهم لصلاة الاستسقاء والدعاء والابتهال لله كي تجري مياه النيل، وهذا طبيعي؛ لأن النيل كان يعدُّ واهب الحياة لجميع أهل مصر بمختلف طوائفهم الدينية، والاحتفال بفيضان النيل كان من الأعياد الموروثة والضاربة في القدم والتي شارك الجميع في إحيائها.كان لأهل الذمة دور في بناء الجسور وصيانتها إما بإرادتهم أو بأمر من السلطان [2].

وفي ختام دراستنا عن عيد وفاء النيل وكسر الخليج نشير إلى أنه كانت تحيط باحتفالات وفاء النيل وكسر الخليج كل مظاهر الفخامة والعظمة التي ميزت عصر سلاطين المماليك في احتفالاتهم بكل الأعياد والمناسبات الدينية أو العامة.

ج- موكب كسر الخليج عند وفاء النيل:

لا يحض إحياء عيد وفاء النيل وكسر الخليج العامة من أهل مصر المملوكية فحسب، وإنما كان السلطان يركب في هذا اليوم لفتح خليج السد ووفاء النيل ويعد خروجه في موكب عظيم لكسر الخليج من التقاليد الموروثة عن خلفاء الدولة الفاطمية [3] الذين اهتموا بالركوب لكسر الخليج ووفائه في مواكب ضخمة ومهيبة.

جرت العادة في مصر المملوكية أن يكون خروج السلطان في اليوم التالي لإعلان وفاء النيل؛ أي زيادته وبلوغه المستوى المطلوب لري الأراضي لكن ركوب سلاطين المماليك لهذا اليوم لم يكن منتظماً، ونفهم ذلك مما قاله القلقشندي: ((*واعلم أن السلطان قد يركب لكسر الخليج*)) [4] وفي حالة عدم خروج السلطان يخرج من ينوب عنه [5].

---

1 - المصدر السابق، ج1، ص569.

2 - قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص149.

3 - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج4، ص99- 100.

4 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص47.

5 - سعيد عاشور عبد الفتاح، المجتمع المصري، ص31.

كما جرت العادة أن يكون خروج سلاطين المماليك لكسر الخليج من قلعة الجبل مقر ملكه في موكب عظيم، ويتميز موكب السلطان بهذه المناسبة بأنه موكب مزدوج، موكب بري يليه موكب بحري. وقد اعتاد سلاطين المماليك الركوب لهذا اليوم بصحبة الأمراء والمماليك، ((وفيه يركب الملك مع خواص دولته)) [1].

ويظهر أن هذا الموكب كان مختصراً لاختصار شعائر السلطنة التي كان يظهر بها السلطان في بقية المواكب ((ولم تجر العادة بركوبه بمظلة ولا برقبة فرس ولا غاشية ولا في معنى ذلك مما تقدم ذكره في ركوب الميدان، والعيدين، بل يقتصر على السناجق والطبردارية والجاويشية)) [2]. وربما يفسر تميز هذا الموكب بكونه موكباً مختصراً في ارتباطه لخصوصية المناسبة أو الاحتفال.

ويكون انطلاق موكب السلطان من القلعة باتجاه المقياس بجزيرة الروضة [3]، ويكون مع ذلك خروج العامة في ازدحام كبير من كامل أنحاء القاهرة ومصر لمشاهدة خروج السلطان [4] وهو يشق المدينة المزينة بشوارعها وأسواقها.

ولعل الاختلاف الثاني الذي نشاهده بخصوص هذا الموكب والاحتفال هو أن السماط الذي يمد بهذه المناسبة يكون موعده منذ وصول السلطان إلى المقياس بجزيرة الروضة حيث ((يمد هناك سماط يأكل منه من معه من الأمراء والمماليك)) [5] وذلك على عكس بقية الاحتفالات والمواكب السلطانية التي كان يمد فيها السماط في آخر الاحتفال، ويكون سماط كسر الخليج متنوعاً فيه كل أنواع الطعام والفاكهة والحلوى. يأكل منه السلطان وخاصته ثم يفرق على العامة كصدقة،وذلك بعد فراغ صاحب المقياس من تخليق مقياس الروضة أي تعطيره بالزعفران المذاب في ماء الزهر.

وفي مرحلة أخرى وبعد تخليق المقياس يبدأ الموكب البحري للسلطان الذي ينتقل فيه السلطان من الخيل ليركب ((الذهبية)) وهي سفينة سلطانية عظمى أو ((حراقة عظمى)) بعبارة القلقشندي: وتكون حراريق الأمراء حوله، تطوف به وهي مزينة، وقد ملأت سطح نهر النيل في مشهد عظيم وأمامها عشرات المراكب والقوارب التي تحمل المتفرجين الذين يقومون بإطلاق

---

1 - السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص349.

2 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص47.

3 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص47.

4 - سعيد عاشور عبد الفتاح، المجتمع المصري، ص31.

5 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص47.

الألعاب النارية، حتى يصل السلطان إلى فم الخليج وموقع السد، ليقوم السلطان عندها بقطع السد بمعول من الذهب كانت تحمله الطبردارية، ثم ينصرف بعدها باتجاه القلعة [1] حيث القصر.

ويلاحظ بخصوص موكب السلطان حرص سلاطين المماليك على خلق نوع من الدهشة ترمي لإبهار العامة، وإيقاع الهيبة في نفوسهم ويقصد هنا هيبة الملك والسلطان.

وهذا ما ذكره ابن شاهين: ((*وأما موكب كسر النيل ينزل السلطان إليه والجيش بخدمته وجميع الأعيان ويكون يوماً عظيماً يجتمع فيه أهل الديار المصري ويكسر السد وتجري المياه بالخلجان وتروي الأقاليم*)) [2].

2- عيد الشهيد:

رغم طابعه الديني وارتباطه بطائفة الأقباط المسيحيين، فإننا نصنفه ضمن الأعياد المصرية الموروثة؛ لأن إحيائه يقع في مصر منذ القدم؛ ولأن الاحتفال به لم يقتصر على طائفة الأقباط فحسب وإنما شارك في إحيائه جميع المصريين بمختلف طوائفهم الدينية وحتى الاجتماعية.

وعيد الشهيد في عصر سلاطين المماليك هو من أهم الأعياد المصرية التي اتسمت بمشاركة المسلمين في تلك الاحتفالات إلى جانب الأقباط، فاتخذ بذلك طابع الاحتفالات العامة. ويقع الاحتفال بهذا العيد السنوي في الثامن من شهر بشنش من الشهور القبطية، وعيد الشهيد من الأعياد التي تحمل طابعاً اجتماعياً و دينياً إلى جانب ارتباطه بنهر النيل؛ إذ يقوم هذا العيد في الأصل على خرافة يزعم الأقباط من خلالها أن: ((النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى يلقي النصارى فيه تابوتاً من خشب فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتى)) [3]. وكانوا يحتفظون بهذا الإصبع الذي ينسب لأحد الحواريين في تابوت في كنيسته بناحية شبرا.

ويكون يوم الاحتفال بهذا العيد بمثابة المهرجان الكبير حيث يجتمع النصارى في هذا اليوم بناحية شبرا مكان إقامة الاحتفالات الدائم هناك [4]. ويخرج كافة أهل مصر والقاهرة باختلاف

---

1 - المصدر السابق ، ج4، ص48.

2 - ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص87.

3 - المقريزي، الخطط، ج1، ص68- 69. / ابن إياس(أبو البركات محمد بن أحمد): نزهة الأمم ، القاهرة، 1988، ص112.

4 - المقريزي،الخطط، ج1، ص68- 69. / ابن إياس، نزهة الأمم، ص112.

دياناتهم وطبقاتهم الاجتماعية ((وينصبون الخيم على شط النيل)) [1] للمشاركة في هذا الاحتفال الضخم بحيث يجتمع جمع كبير، وتقوم الألعاب على الخيل وغيرها بمصاحبة الغناء والإيقاعات ويسود جو من اللهو والسرور والترف.

وتصرف في هذه الاحتفالات أموال ضخمة وهي بشكل عام ميزة كل الاحتفالات والأعياد سواء منها الدينية أو العامة التي كانت تقام في عصر سلاطين المماليك نظراً للثراء الفاحش الذي كانت تتمتع به دولة المماليك.

ارتبط الاحتفال بعيد الشهيد بمظاهر الفساد والانحلال الأخلاقي. هذا إلى جانب الفوضى الاجتماعية التي تتمثل في اندلاع الفتن التي تصل إلى حد القتل وإزهاق الأرواح خاصة وأن الخمر كانت حاضرة؛ إذ يذكر المقريزي: إنه كان يباع من الخمر في ذلك اليوم ((بما ينيف على مائة ألف درهم فضة منها خمسة آلاف دينار ذهباً)) [2]. وهذه الكميات الكبرى من الخمور التي تباع وتستهلك في هذا اليوم تساهم في مظاهر الفساد الأخلاقي والفوضى التي تميز الاحتفالات بهذا العيد.

في سنة 702 هـ/1301 م قام الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والذي كان آنذاك أستاذ دار السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإبطال عيد الشهيد. غير أن قرار الإبطال لم يجد له ما يسوغه، فهل كان ذلك بسبب ما كان يصحب هذه الاحتفالات بعيد الشهيد من فساد وانحلال أخلاقي وفوضى، أم هو مظهر من مظاهر حملات الاضطهاد ضد أهل الذمة في مصر.

وعلى إثر صدور أمر منع هذا العيد حاول كل من الأقباط والمسلمين[3] جاهدين إلغاء هذا القرار مرات عدة. غير أن الأمير بيبرس الجاشنكير كما يذكره المقريزي كان يقول علناً: ((*بأن لا يرمي إصبع في النيل ولا يعمل له عيد*)) [4].

وقد حاول الأقباط جاهدين التصدي لهذا الأمر بمحاولة إقناع ركن الدين بيبرس الجاشنكير بالتراجع عن قراره، فأغروه بالأموال زاعمين أن إبطال هذا العيد خسارة؛ لأنه مصدر الوفاء

---

1 - المقريزي، الخطط، ج1، ص69.

2 - المقريزي، الخطط، ج1، ص69.

3 - المسالمة: هم فئة من المسلمين وأهل الذمة، أشهروا إسلامهم لكنهم ظلوا على ولائهم لدينهم القديم وكانوا بالتالي مصدر شك حول مدى إخلاصهم للإسلام. قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر، ص171.

4 - المقريزي،الخطط، ج1، ص69.

لخراج الدولة لكنهم لم ينجحوا في ذلك ،وقاموا مرة أخرى بالضغط على الأمير ركن الدين بيبرس عندما وسّطوا عنهم أحد الأقباط المقربين منه كان يعمل في الكتابة لكن دون جدوى.

بَطُلَ إحياء عيد الشهيد في مصر سنة 702 هـ/ 1301 م وتواصل قرار منعه إلى حدود 738 هـ/ 1337 م دون انقطاع.

وفي سنة 738 هـ/ 1337 م في عهد سلطنة الناصر محمد بن قلاوون ألغي أمر إبطال عيد الشهيد. ويذكر كل من المقريزي وابن إياس أن السبب في إعادة الاحتفال بهذا العيد ((غريب)) ويتمثل في أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمر بإعادة عيد الشهيد وإبطال قرار إلغائه إرضاءً لاثنين من أمرائه كانا طلبا منه الخروج للصيد، ولصرفهما عن هذا الأمر قام بإلغاء قرار منع عيد الشهيد ((لشدة غرامه بهما وتهتكه في محبتهما... وأراد صرفهما عن السفر، فقال لهما :نحن نعيد عمل الشهيد فيكون تفرجكما عليه أنزه من خروجكما إلى الصيد)) [1].

واستمر عمل هذا العيد سنوياً إلى حدود 755 هـ/ 1354م ليقع إبطاله للمرة الثانية، لكن إبطاله في هذه المرة كان نهائياً في عهد السلطان الملك الصالح صلاح الدين محمد بن قلاوون (752- 755 هـ/ 1351- 1354 م).

لكن هذه المرة لم يصدر الأمر عن السلطان بسبب مظاهر الفساد التي كانت تصاحب الاحتفالات بهذا العيد، بل كان في إطار ظرفية تميزت بحملة واسعة ضد أهل الذمة وبعد تدخل العامة من المسلمين. وكان سببها تحرك المسلمين لما عاينوا ضخامة أوقاف الكنائس والأديرة القبطية التي بلغت آنذاك جملتها ((خمسة وعشرين ألف فدان في أنحاء البلاد)) [2]. وعلى إثر هذه الحملة صادرت السلطة أوقاف الكنائس والأديرة، ووزعت على الأمراء زيادة على إقطاعاتهم [3].

وفي إطار حملة المصادرة هذه وقع هدم كنيسة النصارى بناحية شبرا في ضواحي القاهرة. وهي الكنيسة التي كان يوجد بها التابوت الذي به إصبع الشهيد كما يزعمون. وقاموا بإحراق التابوت الذي يوجد فيه الإصبع المزعوم بحضور السلطان الملك صلاح الدين محمد بن قلاوون ومنذ ذلك التاريخ بَطُلَ عيد الشهيد في مصر تماماً على يد سلاطين المماليك.

1 - المقريزي، الخطط، ج1، ص69.

2 - المقريزي، الخطط، ج1، ص69.

ثانياً- الأعياد الفارسية:

1- عيد النوروز:

النوروز وتلفظ أيضاً النيروز هو عيد رأس السنة القبطية، وموعده أول يوم من شهر تـوت من شهور السنة القبطية الشمسية. فجميع المصريين كانوا على اختلاف دياناتهم يحتفلون بهذا العيـد احتفالاً عظيماً [1].

ويظهر أن لفظة نيروز لفظة فارسية معربة، ويبدو أن القبط قد أخذوا عنهم هذا الموسم في أول سنتهم فجعلوه عيداً [2] وسموه نوروزا. ويمكن أن نؤكد هذا الافتراض الذي يطرحه القلقـشندي بما أورده.

يذكر المقريزي في خططه نقلاً عن ابن عساكر أن أول من أحدث النـوروز أحـد ملـوك الفرس ويسمى ((جمرشيد)) الذي عمل اكتمال ملكه وقضائه على أعدائه على اتخاذ ذلك اليوم عيـداً وأسماه نوروزاً، وهي كلمة فارسية تعني ((اليوم الجديد)) [3].

والنوروز عند الفرس يوم الاعتدال الربيعي وهو نفس ما ذكره ابن إياس عـن الأصـفهاني في أن النوروز أصله فارسي [4] ثم أخذه الأقباط عنهم، وأن أحد ملك القبط فـي القـديم ويـسمى منادش بن منقاوش هو أول من عمل النوروز بمصر، وقد اختار ملوك الأقباط أن يجعلوا أول السنة أول الخريف، وأن يكون ذلك عيداً سموه النوروز، واختيـار أول الخريـف مـستهل الـسنة؛ لأن الخريف كان موعد استكمال النيل لارتباط هذا الاحتفال بنهر النيل.

يقدم كل من المقريزي وابن إياس روايات أخرى يرجعان أصل هـذا العيـد إلـى أصـول أخرى، فثمة من يرجع أصل هذا العيد إلى سليمان بن داود، وأن هذا العيد يحتفل به كذكرى لليـوم ((الذي رجع إليه فيه خاتمه)) [5] الذي ((شفي فيه أيوب عليه السلام)) [6] فجعل ذلك اليوم عيداً.

---

1 - Levy (R). SV. Nawruz, El. TVII, 1996, P 1049 / البيروني (أبو الريحان): الآثار الباقية، طبعـة ادوارد سخاو، 1878، ص 216./ حسن(ابراهيم حسن): تاريخ الاسلام، القاهرة، 1989، ج2، ص 437.

2 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص429.

3 - المقريزي، الخطط، ج1، ص267- 268.

4 - ابن اياس، نزهة الأمم، ص241- 243.

5 - المقريزي، الخطط، ج1، ص268. / ابن اياس، نزهة الأمم، ص241.

6 - المقريزي، الخطط، ج1، ص268.

ورغم هذه الاختلافات في المصادر التاريخية حول أصل الاحتفال بعيد النوروز، فإنه بإمكاننا ترجيح رواية القلقشندي، والرواية التي يذكرها المقريزي في أن النوروز يعود في أصوله التاريخية إلى الفرس. وقد وصف ابن الحاج المفاسد التي تقع أثناء الاحتفال بهذا العيد بالخصال الفرعونية [1] وهو ما يمكن أن يؤكد أن هذا العيد كان يحتفل به قدماء مصر.

إن هذا العيد شأنه شأن عيد الشهيد شارك جميع المصريين في إحيائه على اختلاف دياناتهم وطبقاتهم الاجتماعية. وقد تواصل الاحتفال به في عصر سلاطين المماليك وكانت سمة آنذاك أنه كان عيداً عاماً لا يهتم به الأقباط فحسب بل يشارك فيه المسلمون أيضاً، فكان بذلك احتفالاً عاماً ومشهوداً. حيث يقول ابن الحاج: إنه من المواسم التي اعتاد المسلمون على إحيائه ((وهم يعلمون *أنها مواسم مختصة بأهل الكتاب*)) [2].

أ- عادات النوروز:

تمثلت مظاهر الاحتفال بيوم النوروز في الدولة المملوكية بيوم عطلة عامة حيث كانت تغلق فيه الأسواق [3] وتتعطل الحركة في المدينة وتغلق المدارس، وتتعطل الدروس في هذا اليوم ((بل تجد بعض المدارس مغلقة، فيلعبون فيها حتى لو جاء المدرس...)) [4].

وتنوعت الاحتفالات بهذا اليوم داخل المنازل وخارجها أي بالأسواق والأزقة. أما في المنازل فكانوا يستعدون لهذه المناسبة بإعداد أنواع معينة من الأطعمة والحلويات مثل ((الزلابيا والهريسة)) والتي يقع إعدادها ليلة النوروز وهي من العادات التي حرص المسلمون على المحافظة عليها وتحقيقها ((تشبهاً بأهل الكتاب)) [5].

---

1 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص49.

2 - ابن الحاج، المدخل، ج2، ص46.

3 - ابن إياس، نزهة الأمم، ص243./ المقريزي، الخطط، ج1، ص269.

4 - ابن الحاج، المدخل، ج2، ص49.

5 - المصدر السابق، ج2، ص48.

وفي يوم النوروز يجتمع الأقارب والأصحاب في أحد المنازل للاحتفال بهذه المناسبة بصفة جماعية ((كأنه عيد بينهم)) [1] لتناول أنواع من الأطعمة كالبلح والبطيخ الأخضر... اقتداءً بالأقباط. أما في الأسواق والشوارع والأزقة، فيجتمع عامة الناس في احتفالات شبيهة بالمهرجان، فيختـــارون أحداً منهم يغيرون له ملامحه ويسمى ((أمير النوروز)). وفي ابن الحاج وصف دقيق لمـــا يفعلونـــه فيقول ((*فيغيرون وجهه بجير أو دقيق ثم يجعلون له لحية من فروة أو غيرها ويلبسونه ثوباً أحمر أو أصفر ليشهروه بذلك... ثم يجعلون على رأسه طرطوراً طويلاً ثم يركبونه على حمـــار ويجعلـــون حوله الجريد الأخضر وشماريخ البلح... فيطوفون به أزقة البلد وشوارعها علـــى الأبـــواب وفـــي الأسواق على أكثر الدكاكين والبيوت فيأخذون منهم ما يأخذون على شبه الظلم والغضب والتعـــسف ومن امتنع عن ذلك آذوه بصب الماء عليه... فيهينونه بالضرب والكلام الفاحش*)) [2]. ولا يخلو هذا الاحتفال من التراش بالماء، وإيقاد النيران وهي من العادات التي كان يمارسها الفرس منـــذ القـــديم عند الاحتفال بالنيروز، إضافة إلى التصافع بالجلود، أو كما يقول المقريـــزي ((*وما زال النـــوروز يعمل فيه ما ذكر من التراش بالماء والتصافع بالجلود والتراجم بالبيض وغيرها*)) [3].

ولم تقتصر هذه الأفعال على العامة وإنما كان بعض الأعيان يقومون بذلك في بـــساتينهم [4] بعيداً عن أعين العامة، ولم يكن يوم النوروز يوم عطلة عن الأنشطة التجارية والتعليمية والضوابط الأخلاقية، بل أيضاً عطلة قانونية، فقد كانت ترتكب في هذا اليوم أنواع من الحوادث والفـــتن التـــي كانت تصل إلى حدّ القتل دون تدخل السلطة حتى أن ((الوالي لا يحكم في ذلك اليـــوم حتـــى لمـــن زهقت نفسه)) [5].

كما يذكر المقريزي أنه ((*قلما انقضى يوم نوروز إلا وقتل فيه قتيـــل أو أكثـــر*)) [6] دون أن يتدخل الوالي أو يحكم لأحد من المتضررين في ذلك اليوم، وكان بذلك كل شيء مباح حتى الأنفس. لذلك فإن كل من كان له عدو يستغل ذلك اليوم لينفذ مأربه أو ثأره على جهة اللهو ((فيـــذهب دمـــه

---

1 - المصدر السابق، ج2، ص49.

2 - ابن الحاج، المدخل، ج2، ص52- 53.

3 - المقريزي،الخطط، ج1، ص269.

4 - المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص49.

5 - ابن الحاج، المدخل، ج2، ص49.

6 - المقريزي، الخطط، ج1، ص269.

هدراً ولا يؤخذ له ثار)) [1]. إن هذه الاحتفالات تجاوزت اللهو والسرور لتتعداه إلى انحلال وفساد أخلاقي.

ب- موقف المماليك من النوروز:

لقد تعددت محاولات إبطال العادات المستهجنة التي كانت ترافق الاحتفالات بهذا العيد من تراش بالمياه النجسة و إيقاد للنيران، وكانت هذه المحاولات قد بدأت مع الخلفاء الفاطميين لكن دون جدوى [2] أما في دولة المماليك فلم نجد في المصادر ذكر لأي تدخل للدولة سواء بالسلب أو الإيجاب إلا بداية سنة 782 هـ / 1380م عندما أمر الأمير برقوق قبل أن يصبح سلطاناً بكف لعب النوروز وهدد من لعبه بالعقوبة بالضرب وبمصادرة أمواله.

ويتضح أن هذا القرار بمنع هذا العيد كان في بدايته جدياً فقد وقع القبض على أربعة من المخالفين عوقبوا وشهروا ليكونوا عبرة [3]. لكن العيد لم يبطل ولكن اختفت بذلك الكثير من العادات التي كانت ترافق احتفالات النوروز مثل التراجم بالبيض [4]. لكن يبدو أن قرار الأمير برقوق لم يكن حاسماً فقد ذكر القلقشندي أنه تواصل الاحتفال بعيد النوروز، غير أنه وإلى حدود سنة 791 هـ/ 1389م اقتصر الاحتفال على رش المياه والتصافع وترك الاحتشام ((دون إيقاد النيران ودون ما يفعله النصراني في بيته وخاصته)) [5].

ولعل تواصل الاحتفال بعيد النوروز يعود إلى تجذر هذا العيد لدى أهل مصر الذين كانوا يحتفلون بهذا العيد منذ القديم على اختلاف انتماءاتهم الدينية والاجتماعية ومدى تعلقهم به. كما يمكن أن نرجع ذلك أيضاً إلى اهتمام بعض سلاطين المماليك باللهو واللعب.

ويتضح أنه لم يبطل إحياء النوروز إلا مع دولة سلاطين المماليك الجراكسة، والتي تمثل فترة تراجع دولة المماليك في مصر مقارنة بدولة سلاطين المماليك البحرية التي تميزت بالازدهار والثراء المادي والحضاري، وبالتالي ارتبط إحياء النوروز بثراء الدولة وترفها وهو ما نفهمه من

---

1 - المصدر السابق، ج2، ص49.

2 - المقريزي، الخطط، ج1، ص268.

3 - المقريزي، السلوك، ج3، قسم 1، ص394.

4 - المقريزي، الخطط، ج1، ص269.

5 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص429- 430. / البيروني، المصدر السابق، ص 222.

قول المقريزي عن عهد دولة المماليك الجراكسة من أنه ((لم يبق للناس من الرفه ما يوجب لهم عمله)) [1] ويقصد هنا طبعاً إحياء عيد النوروز.

2- عيد المهرجان:

عيد من الأعياد الفارسية الأصل، وهو من أكبر الأعياد التي كان يحتفل بها الأقباط قبل دخول الإسلام، غير أنه تواصل الاحتفال بهذا العيد حتى بعد دخول الإسلام.

أما موعد الاحتفال بعيد المهرجان، فيكون سنوياً في منتصف السنة القبطية الشمسية ((في وسط زمان الخريف)) [2] وتحديداً في التاسع من شهر أبيب من شهور الأقباط، ويكون بذلك بينه وبين النوروز مئة وسبع وستون يوماً، وتتميز احتفالات المهرجان بالخروج إلى المنتزهات ترويحاً عن النفس وما يصاحب ذلك من مظاهر اللهو والسرور والرقص والغناء مثله مثل النوروز. وقد اعتاد الناس من أقباط ومسلمين تبادل الهدايا فيما بينهم، وتواصل الاحتفال بعيد المهرجان طيلة ستة أيام ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر مثلما يسمى اليوم السادس من الاحتفال بعيد النوروز، النوروز الأكبر [3].

وقد ظلت مثل هذه الأعياد الفارسية الأصل محل اهتمام المماليك الذين واصلوا إحياءها وربما شجع على ذلك جنوح بعض سلاطين المماليك إلى اللهو والسرور والتفرج على أصحاب الملاهي، إضافة إلى ما كانوا يتقبلونه من هدايا [4] من الأقباط الذين كانوا يعملون كموظفين في الإدارة المملوكية.

ولكن يظهر أن عيد النيروز كان من حيث تقاليد الاحتفال به متفوقاً على عيد المهرجان على أساس أن المصادر التاريخية لم تقدم لنا معلومات إضافية عن إحياء عيد المهرجان بل تركز جلّ المصادر على إحياء عيد النوروز وما ارتبط به من عادات وطقوس.

---

1 – المقريزي، الخطط، ج1، ص269.

2 – القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص420.

3 – المصدر السابق، ج2، ص420.

4 – ابن الحاج، المصدر السابق ج2، ص334.

ثالثاً- الحفلات الخاصة للمصريين:

أما الحفلات التي اهتم الناس بإحيائها في عصر المماليك فيمكن تقسيمها قسمين: حفلات خاصة أو عائلية، وحفلات عامة أو شعبية. وأول أنواع الحفلات المنزلية ما يتعلق بأفراح الزواج. عمد كثير من المصريين إلى المبالغة في ذلك النوع من الحفلات تقليداً لما اعتاد أن يفعله سلاطين المماليك في أفراحهم.

وبدأ الزواج في ذلك العصر بالخاطبة التي يقصدها راغب الزواج؛ لأنها ((تعرف كل مليحة بمصر والقاهرة)) ذلك أنها تتظاهر ببيع الطيب والبخور وغير ذلك من لوازم النساء، وبذلك يتاح لها دخول البيوت والاطلاع على أسرار الحريم، فتستطيع أن تأتي للعريس بالعروس التي تناسبه [1] ولم يكن للفتاة رأي في اختيار شريك حياتها، بل ظل الرأي النهائي لوالدها وربما شاركته أمها. فإذا تمت الخطوبة جاء دور عقد القران في المسجد، على أن ينصرف أهل العريس بعد كتابة العقد في موكب كبير أو صغير حسب الحال. وبعد عقد القران يأتي إعداد المهر ونقله إلى منزل العريس.

وجرت العادة أن يكون في ذلك المهر ثلاث دكك: إحداها من فضة، والثانية من نحاس أبيض، والثالثة من نحاس أصفر. وفي ليلة الزفاف تقام وليمتان كبيرتان إحداهما للنساء في بيت العروس، والأخرى للرجال في بيت العريس وبعد الطعام يخرج العريس في موكب يحف به الأهل والأحباب قاصداً بيت عروسه حيث يبدأ حفل يختلط فيه الغناء بضرب الدفوف وزغاريد النساء. وكثيراً ما يتباهى المدعوون والمدعوات بتقديم النقوط إلى المغنيات، وتقديم الهدايا من الشمع والخراف والسكر والأوز وغير ذلك من أصحاب العريس. ومن الواضح أن هذه الهدايا كانت تعد ديناً لا بدّ من تقديمه على أن يرد في المناسبات المماثلة. وفي نهاية الحفل تنحني العروس أمام العريس لتقبل يده وتقدم له سيفاً تمسكه من طرفه، فيتناوله العريس من مقبضه.

ومن الحفلات العائلية حفلات الولادة، فإذا وضعت الأم مولودها أقبلت عليها النساء يزغردن، ويرقصن مع ضرب الدفوف، في حين تدوي المزامير والأبواق على أبواب المنزل. ويتضاعف الفرح إذا كان المولود ذكراً؛ إذ يتعين على والده في هذه الحالة أن يقيم وليمة ((مولود ذكر)) يدعو إليها الأهل والأحباب ويكثر فيها من عمل أصناف الطعام

---

1 - الموصلي (ابن دانيال): طيف الخيال، دار الكتب المصرية، القاهرة، دت، ص49.

والحلوى[1]. أما يوم السبوع فيكون الاحتفال به عظيماً إذ تلبس أم المولود الثياب الجديدة وتطـوف بأنحاء الدار في موكب تحيط به الشموع، والقابلة أمامها تحمل المولود مع إطلاق البخـور وإلقـاء الملح وبعض الحبوب يميناً ويساراً ((لمنع العين والجان)).

احتفلت العائلات كذلك بختان الطفل، فكانت تقيم حفلاً تدعو إليه الأهل والأصـدقاء الـذين يحرصون على تقديم النقوط لأهل الطفل على أن توضع هذه النقوط ((في الطشت الذي يطهـر فيـه الولد)) [2] ، وإذا سافر أحد أفراد الأسرة إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، فلا بدّ من توديعـه عنـد السفر ثم استقباله بعد عودته في حفل تنشد فيه الأناشيد التي يطلق عليها اسم ((التحنين)) ؛لأنها تشوق الناس إلى الحج وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام ،وفي جميع هذه الأفراح كان لا بدّ مـن الحصول على إذن ضامنة الأغاني بعد دفع الرسوم المقررة لها ((*ومن عمل فرحاً بأغـان أو نفـس امرأته من غير إذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف*)) [3].

الفصل الرابع

1 - ابن حجر، إنباء الغمر، ج1، ص560.

2 - المصدر السابق، ج2، ص376/ المقريزي، السلوك، ج4، ص466.

3 - المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج1، ص106.

أماكن الاحتفالات

أولاً- أماكن الاحتفالات:

تعد مدينة القاهرة من أهم المدن المملوكية باعتبارها عاصمة الملك، وعاصمة العالم الإسلامي خاصة بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد التي أصبحت تحت سيطرة المغول. وقد اتسعت مدينة القاهرة باتساع الأسواق والمنازل ودور الأمراء، وبناء الجوامع والمدارس، كما قام السلاطين ببناء القناطر والجسور لربط المدينة بغيرها من المدن. حتى إن ابن بطوطة دوّن إعجابه بمدينة القاهرة واعتبرها أم البلاد ووصفها بالمتناهية في كثرة العمارة [1].

1 - ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص485/ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص190/ ابن بطوطة، المصدر السابق، ص55.

كما اشتهرت مدن عديدة تابعة للمماليك وأهمها الإسكندرية والفسطاط.ومن المدن التي اشتهرت دمشق حيث عدّت قاعدة المُلك الثانية بعد القاهرة،كما اشتهرت مدن أخرى ببلاد الشام يخرج السلطان المملوكي إليها للصيد والنزهة.

أما أهم الأماكن التي استخدمها المماليك لتكون مقراً لاحتفالاتهم الخاصة والعامة.

1- قلعة الجبل وملحقاتها:

قلعة محصنة تقع على جبل المقطم [1]. وقد اختار سلاطين دولة المماليك البحرية هذا المكان كقاعدة لحكمهم، ويقدم لنا العمري وصفاً لموقع هذه القلعة ((فأما قلعة الجبل فهي على نشز عال يسمى الجبل الأحمر من تقاطيع جبل المقطم بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب... وهي مبنية على ذلك النشز، ترتفع في موضع منه وتنخفض في آخر، يدور بها سور حجر بأبراج وبدنات إلى أن ينتهي إلى القصر الأبلق الناصري المستجدّ بناؤه، ثم من هناك تتصل بدور الملك وليست على أوضاع أبراج القلاع)) [2].

تحوي القلعة قصوراً لإقامة السلطان، وتحتوي على عدة قاعات ودور الحريم والجواري. كما يوجد في محيط القلعة إسطبل السلطان المخصص للخيول السلطانية وميدان القلعة الكبير وكان لكل ساحة وظيفتها.

كان الإيوان يمثل قاعة العرش وداراً للعدل أو كما يقول العمري: ((المعدّ لجلوس السلطان أيام المواكب وإقامة دار العدل)) [3].

يقام بهذا الإيوان الاحتفال بتولية السلطان الجديد بعد أداء اليمين ومدّ السماط وتوزيع الخلع والتشاريف على كبار الأمراء وأرباب الوظائف.

وقد كان لجامع القلعة ارتباط بموكب السلطان وتحديداً ركوب السلطان إلى هذا الجامع لأداء صلاة الجمعة، وهذا يعني أن بناء هذا الجامع في القلعة كان مخصصاً لهذه المناسبة الدينية، ولم تكن له وظيفة أخرى كالتدريس مثل المدرسة أو الخوانق خصصت مقصورة بهذا المسجد ليقيم فيها

---

1 - العمري، المصدر السابق، ص79. كان هذا المكان يستخدمه الأيوبيين ليتمكنوا من خلالها الإشراف على القاهرة والفسطاط.

2 - العمري، المصدر السابق، ص80.

3 - العمري، المصدر السابق، ص81/ ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص485.

السلطان صلاة الجمعة في حين يصلي بقية الأمراء خارجها، ويصطفون عن يمين ويسار المقصورة من الخارج في ترتيب يعكس هرمية السلطة وتراتبية الأمراء، وقربهم من السلطان ومما يؤكد أن جامع القلعة كان مخصصاً فقط لركوب السلطان وأداء صلاة الجمعة، إن صلاة العيدين كانت تقام بميدان القلعة ولم يتحول سلاطين المماليك عن ذلك إلا مع السلطان برقوق الذي أصبح يركب لصلاة العيدين بجامع القلعة وذلك لأسباب أمنية [1].

ويعد ميدان القلعة [2] من أكثر الأماكن التي استخدمها السلاطين المماليك للقيام باحتفالاتهم ويصف العمري هذا الميدان بأنه ميدان مموج بالنخيل الأخضر، يفصل بين الإسطبلات وبين سوق الخيل، وكان الميدان متسعاً ((فسيح المدى يسافر النظر في أرجائه... وبهذا الميدان أنواع من الوحوش المستحسنة للنظر وتربط به خواص الخيول للتفسح)) [3].

وكان سلاطين المماليك البحرية يركبون لهذا الميدان في العيدين (عيدا الفطر والأضحى) لأداء صلاة العيدين بحضور خطيب القلعة، يليه مد سماط العيد وتوزيع الخلع والتشاريف [4] في الإيوان الكبير وكان السلطان يركب للميدان في موكب عظيم بشعائر السلطنة.

كما كان الميدان مخصصاً للألعاب المملوكية مثل القبق، وسباق الخيل، كما حمل الميدان اسم السلطان الذي أنشأه مثل الميدان الظاهري والناصري... كما كان سلاطين المماليك يستعرضون أجنادهم من المماليك بالميدان في حالة السلم [5].

وكان الهدف منه التأكد على امتلاك كل فارس لآلاته الحربية، واختبار استعدادهم لأي خطر قادم باعتبار أن بلاد الإسلام كان يتهددها الخطرين الصليبي والمغولي. وكان ركوب السلطان ومماليكه على ميدان لممارسة الألعاب الرياضية مناسبة للهو والترفيه وأيضاً للتمرين واكتساب الفنون الحربية وهو ما يجعلنا نعتبر أن العوامل السياسية كانت من العوامل المساعدة في تميز الألعاب والاحتفالات السلطانية والمملوكية في عهد سلاطين المماليك.

---

1 – ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص111/ السيد (أيمن فؤاد): التطور العمراني لمدينة القاهرة، القاهرة، 1990، ص16.

2 – ميدان القلعة يقع تحت القلعة على مقربة من سوق الخيل.

3 – العمري، المصدر السابق، ص83.

4 – المصدر السابق، ص83/ Doris Behrems Abouseif, The citadel of cairo, P65

5 – المقريزي، السلوك، ج1، ص626.

يوجد خارج القلعة ميادين عديدة أغلبها من إنشاء كل من السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون ويعود ذلك إلى طول مدة حكمهما. وهما بالتالي من أبرز السلاطين الذين رسموا هذه الصورة الزاهية وحققوا قوة دولة المماليك.

أما عن أول ميدان شيده سلاطين المماليك فهو ((الميدان الظاهري)) نسبة للسلطان الظاهر بيبرس البندقداري كان هذا الميدان الذي يشرف على النيل، وقد خصصه للعب الكرة كما أنشأ السلطان الظاهر بيبرس ميدان القبق خارج القاهرة وميدان العيد.

2- الأسواق:

أقيمت هذه الأعياد والاحتفالات في المدينة وفي أماكن معينة وثابتة، وارتبطت كل مناسبة بمكان معين من المدينة مثل الزوايا التي كان يؤمها العامة لزيارة الأولياء الصالحين في الموالد، في حين كان المسجد مكاناً لأداء صلاة العيدين وإحياء ليالي رمضان بالذكر وتلاوة القرآن، كما كانت المقابر تستقبل أعداداً كبيرة في الأعياد والمواسم، لتتحول بنفسها إلى مكان يتجمع فيه العامة، أما الأسواق فقد كانت مكاناً لاقتناء مستلزمات هذه الأعياد والمواسم كما أنها ارتبطت ارتباطاً مباشراً ببعض عادات العامة في هذه الأعياد والمواسم.

وقد تميزت هذه الأسواق بتخصصها لبضائع معينة، ومن ناحية ثانية ارتبطت ببعض عادات أهل مصر في أعيادهم المتنوعة والمتعددة. عبّر ابن بطوطة الذي زار مصر في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عن إعجابه بمدن مصر وثرائها وكثرة أسواقها [1] حتى إن ((راكب النيل لا يفتقر إلى استصحاب الزاد؛ لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك. والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد)) [2].

فقد تخصص كل سوق في نوع معين من البضاعة وكان اسم السوق يرتبط بنوع البضاعة المتخصص فيها، وهو يبين اهتمام السلطة بتنظيم الأسواق كمكان تجاري يعكس ازدهار المدن ونموها. نجد أسواقاً متخصصة في المواد الغذائية مثل اللحوم والطيور والدواجن والتي انتشرت

1 - ابن بطوطة، تحفة النظار، ص55، 67.

2 - المصدر السابق، ص53.

بجوار الأحياء السكنية. الإضافة إلى أسواق الملابس المتخصصة في بيع الخلع والتشاريف التي كان السلطان يمنحها للأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم في الاحتفالات والأعياد ومثل ذلك سوق ((الشرابشين)) [1] نسبة للشربوش الذي كان يمنح للمماليك عند ترقيتهم وتأميرهم، وسوق ((الحوائصيين)) التي كان يباع بها الحوائص التي يتمنطق بها الأمراء والجنود حول أوساطهم التي يمنحها لهم السلطان في المناسبات والأعياد.

كما تواجدت أسواق خاصة بلوازم الجنود من الأسلحة ومعدات الركوب من الرماح والسيوف والقسي والنشاب، والتي كانت تباع بسوق السلاح، و يقتنيها المماليك للحروب أو للتمرين والألعاب الفروسية التي تعرضنا لها في عنصر مواكب الألعاب المملوكية [2].

هذه الأسواق ارتبطت أيضاً بالكثير من العادات الاجتماعية العامة لأهل مصر آنذاك وخاصة المرتبط منها بالأعياد.

أما عن ارتباط الأسواق بالعادات الاجتماعية للعامة وخاصة منها الأعياد. فقد كان السوق مكاناً للتزود بالبضائع التي يحتاج إليها الناس في حياتهم اليومية وخاصة منها في الأعياد والمواسم باعتبار أن هذه الحاجات تتنوع وتزداد لارتباطها بطبيعة الموسم.

وقد اعتادت النساء خاصة ارتيادها بأعداد كبيرة في المواسم والأعياد الدينية الإسلامية وحتى الأعياد الخاصة بالأقباط مثل خميس العدس الذي تخرج فيه النساء للأسواق لاقتناء البخور والخواتم كعادة ارتبطت بهذا العيد، والتي يصفها لنا ابن الحاج معتبراً هذه العادة من العادات السيئةبقوله: ((فمنها خروج النساء في ذلك اليوم لشراء البخور والخواتم وغيرها، فتجدهن في ذلك اليوم في الأسواق أكثر من الرجال فمن يمر بالسوق من الرجال لا يقدر على المشي فيه إلا بمشقة لزحمة النساء)) [3].

أما سوق الحلاويين المخصص لبيع الحلوى، فقد كان يرتاده الناس خاصة في أيام العيد والمواسم التي يكثر فيها استهلاك الحلويات [4]، ومن هذه المواسم مواسم شهر رجب، ونصف

---

1 – يذكر المقريزي أن هذا السوق قد أحدث بعد الدولة الفاطمية ويمكن أن نعتبره من استحداث المماليك البحرية نسبة للشربوش الذي كان من اختصاصهم، للمزيد انظر المقريزي: الخطط، ج2، ص97- 98- 99.

2 – المصدر السابق، ص97- 98- 99.

3 – ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص54.

4 – المصدر السابق، ج1، ص291.

شعبان، وعيد الفطر، وكان يكثر استهلاكهم لهذه الحلويات التي يقدمونها فيما بينهم كهدايا في حين كانت أسواق الشماعين وهي أسواق توجد فيها الحوانيت ((معمورة بالشموع الموكبية والفانوسية)) [1] التي تخصصت في بيع الشموع والفوانيس، والتي كانت تشهد أزهى فتراتها لارتيادها من قبل أهل مصر خاصة في شهر رمضان، والأعياد وعيد الغطس لاقتناء أعداد كبيرة من الشموع والفوانيس لتزيين المنازل والجوامع والدكاكين خاصة عند إحياء ليالي رمضان احتفالاً بالعيد، كما كانت الشوارع تضاء بهذه الفوانيس عند الاحتفال برجوع السلطان منتصراً من الحرب، أو من شفائه بعد مرض، أوعند مرور موكب السلطان شاقاً المدينة والشوارع.

3- المساجد والزوايا والمدارس:

شهد عصر المماليك تشييد عدد كبير من المساجد، ولم يكن دور المساجد مقتصراً على العبادة بل كان مخصصاً أيضاً للتعليم الديني، إضافة إلى أن المساجد كانت ترتبط بمظاهر الحياة اليومية. ارتبطت المساجد بعدد من الأعياد الدينية التي كان يقع إحياؤها في المساجد التي كان يحتفل العامة من أهل مصر بها آنذاك باعتبارهم كانوا يخرجون إليها لأداء صلاة الجمعة ، ولأداء صلاة العيدين (عيد الفطر والأضحى) حيث كان يخرج لها ولاة هذه المدن وعدد كبير من العامة حتى النساء، وكما يذكر ابن الحاج باستنكار، يخرجن في أكمل زينة [2] وما يصاحبه من فتن. كما كان يقع إحياء شهر رمضان في المساجد من خلال صلاة التراويح التي يخرج لها الجميع وأكثر من ذلك كانوا يجعلون من المسجد مكان اجتماع ولهو [3] وما يصحب ذلك من اختلاط النساء والرجال ومن خروج عن الأدب، وإلى جانب المساجد كانت بقية المنشآت الدينية من زوايا ومدارس تؤدي إلى وظائف اجتماعية ترتبط بمواسم معينة.

اهتم سلاطين المماليك بالزوايا والمشاهد اهتماماً بالغاً،والتي يرجع أغلبها للدولة الفاطمية في إطار إحياء ذكرى آل البيت. ومن مظاهر الاعتقاد في كرامات الصالحين والتبرك بها انتشار

---

1 - المقريزي، الخطط، ج2، ص96.

2 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص284، 288.

3 - المصدر السابق، ج2، ص290.

المشاهد والزوايا التي كان العامة من أهل مصر آنذاك يترددون على زيارتها، وخاصة في المواسم والأعياد ومنها عاشوراء.

كانت أغلب هذه المشاهد [1] توجد بالقرافة [2] (الجبانة) التي رغم ارتباطها بظاهرة الموت، فقد كانت مزاراً في الأعياد؛ إذ يخرج العامة لزيارة قبور ذويهم في جماعات، وجعلوا منها أماكن لهو وتنزه حتى أن المقريزي وصفها بأنها معظم تجمعات أهل مصر وأشهر تنزهاتهم [3].

وإلى جانب وظيفة هذه المدارس التعليمية الفقهية كانت لها علاقة بأعياد واحتفالات المماليك خاصة كرمز، وتحديداً في الاحتفال الخاص بترقية المماليك وتأميرهم [4].

كان المماليك المتخرجين من مؤسسة الطباق بعد فترة تكوينهم، وعند الاحتفال الجماعي بترقيتهم يؤدون قسم أو يمين الولاء للسلطان بهذه المدرسة. وفي البداية كانت تقوم بهذا الدور المدرسة الصالحية كرمز اتخذه سلاطين المماليك عن وعي لإبراز سلطتهم تواصلاً مع سلطنة الأيوبيين معتبرين بذلك الصالح نجم الدين أيوب الأب المؤسس لدولة المماليك، باعتباره مؤسس فرقة المماليك الصالحية، وكل ذلك في إطار البحث عن شرعية الحكم التي كان سلاطين المماليك يفتقدونها عند نشأة دولتهم الجديدة. ثم انتقل مكان أداء يمين الولاء في الاحتفال بترقية المماليك إلى المدرسة المنصورية [5] ويعود سبب تغيير المكان إلى تغير انتماء سلاطين المماليك من الفرقة الصالحية إلى الفرقة المنصورية بعد تغلب هذه الفرقة، وبالتالي اعتبر المنصور سيف الدين قلاوون مؤسس هذه العائلة الحاكمة الجديدة. واختيار هذا المكان أيضاً كان سعياً من سلاطين المماليك لتدعيم شرعية سلطتهم وانتمائهم للسلطان المنصور سيف الدين قلاوون، وبالتالي فإنه كان لاختيار المكان رمزيته وهدفه.

يعد النيل وجزيرة الروضة أماكن تستقطب الخاصة والعامة من أهل مصر المملوكية للنزهة والطرب واللهو خاصة في الأعياد الدينية، وكان الاحتفال بهذه الأعياد (وخاصة النوروز

---

1 – المشاهد مفردها المشهد وهو المسجد الذي يكون فيه ضريح الولي الصالح.

2 – ابن بطوطة، تحفة النظار، ص56.

3 – قاسم عبده، بعض مظاهر الحياة اليومية، ص29.

4 – المقريزي، الخطط، ج2، ص380.

5 – المقريزي، الخطط، ج25، ص380.

وعيد الشهيد لارتباطهما بالنيل) بمثابة المهرجان على شاطئ النيل، فقد كان الناس يخرجــون فـــي أعداد غفيرة من كل أنحاء مصر للاجتماع على صفحة النيل في القوارب أو على جزيرة الروضـــة حيث يصحبهم أرباب الملاهي لإقامة الاحتفالات من خلال الغنــاء والطــرب، وتكثــر فـــي هــذه المناسبات كل أنواع اللهو والمجون، ومظاهر الفساد والفتن حتى إن السلطان المملوكي كثيــراً مــا كان يصدر أوامره بمنع الناس من ركوب النيل، لما كان يصحب اجتماعاتهم في هذه الأعيــاد مــن مظاهر الفساد.

كان السلطان يخرج عند الاحتفال بوفاء النيل ويركب الذهبية فـــي حـــين يركـــب الأمـــراء الحراريق حتى إن النيل لا يرى من كثرة هذه الحراريق ومن ضخامة الاحتفال، وقـــد كـــان النيـــل مكاناً لإقامة الألعاب البحرية المتمثلة خاصة في اللعب بالشواني الذي كـــان يخـــرج لـــه الـــسلطان والأمراء والعامة من أهل مصر لمعاينة هذه الألعاب، وما يظهر من خلالهـــا مـــن قـــوة المماليـــك العسكرية البحرية ليكون ذلك اليوم من الأيام المشهودة لما يصاحبه من اللعب واللهو [1].

ثانياً- دور اليهود والنصارى في الحياة الاجتماعية:

جعلت طبيعة نظام الحكم في دولة سلاطين المماليك لهذه الدولة خصائص ميزتها كظـــاهرة فريدة. فلم تكن النظرية السياسية لهذه الدولة قائمة على مبدأ الوراثة في الحكم، أو التفويض الشعبي أو الانتخاب بل قامت على أساس التنافس بين الأمراء على السلطنة. ومن ثم اتخذت العلاقـــة بـــين سلاطين المماليك ورعاياهم من أهل الذمة طابعاً خاصاً. وفي هذا المجال حرص الـــسلاطين علـــى تقرير التزامهم العدالة تجاه أبناء الأقليات الدينية عملاً بتعاليم الدين الإسلامي من ناحية، كمـــا أنهـــم مارسوا عليهم ضغوطاً شتى إرضاءً لأهل العمامة الذين اعتمد عليهم السلاطين كثيراً نظراً لنفوذهم الواسع من ناحية أخرى، كما أن الثروات التي اقتناها بعض اليهود والنصارى نتيجة عملهـــم فـــي الجهاز الإداري كانت تسيل لعاب السلاطين،ولا سيما في أوقات الشدة، فيبادرون إلـــى مـــصادرتها. وهنا ينبغي الإشارة إلى أن المصادرة كانت سمة عامة من سمات الـــسياسة الداخليـــة فـــي عـــصر

---

1 - المقريزي، السلوك، ج1، ص928.

المماليك ولم تكن انطلاقاً من دوافع دينية، وإنما كانت تعبيراً عن طبيعة علاقة أولئك الحكام العسكريين برعاياهم من المسلمين وأهل الذمة على السواء [1].

بدأ نفوذ الأقليات يزداد تحديداً في الميدان الإداري، وقد فزع المسلمون من نفوذ أبناء هذه الأقليات الناتج عن توليهم وظائف الإدارة المالية، فاتهموهم بالتحكم في مقدرات المسلمين، وبأنهم استخدموا نفوذهم ((في دفع من يتعرض لهم)) وغير ذلك من التهم [2]. وعلى أية حال، فإنه من المهم التركيز في هذه الدراسة على دور الأقليات الدينية في الحياة الاجتماعية آنذاك، فقد شارك اليهود والنصارى في نشاط المجتمع المصري الذي كانوا جزءاً لا يتجزأ منه يتأثرون بأحداثه الجارية ويؤثرون فيها، كما يخضعون للظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية التي يخضع لها المجتمع.

ففي تظاهرات الاستقبال السياسية التي كانت سمة عامة من سمات الحياة المصرية في عصر المماليك– كان أبناء الطوائف اليهودية والمسيحية يشاركون المصريين المسلمين في استجابتهم لأوامر السلطات الحاكمة (ممثلة في الوالي أو المحتسب) بتزيين الحوانيت، والأسواق والتجمع على طول طريق الموكب السلطاني، وهم يحملون كتبهم المقدسة، والشموع الموقدة مشاركة منهم في هذه المناسبة [3]. وفي سنة 880 هـ/ 1475 م خرج المصريون وبينهم اليهود والنصارى لاستقبال السلطان الأشرف بمناسبة عودته من رحلة صيد [4].

ومن الناحية الاقتصادية ساهم المسيحيون واليهود في أعمال صيانة كثيرة مثل مرافق الري، وكان اشتراكهم في مثل هذه الأعمال يتم برغبتهم في بعض الأحيان، أو بإجبارهم وتسخيرهم مثل سائر المصريين أحياناً أخرى.

ومن الناحية الاجتماعية، تشير المصادر إلى أن أهل الذمة قد تمتعوا بحريتهم الاجتماعية داخل إطار الحياة العامة للمجتمع ككل، بل إن بعض الوثائق اليهودية المعروفة باسم (الجنيزا) كتبت بأيدي المسلمين والمسيحيين الذين كانت تربطهم باليهود علاقة من

---

1 – قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص63– 101/

Atiya (A.S) The Crusades in The Middle Ager (London 1938) P. 272.

2 – ابن الأخوة (محمد بن محمد): معالم القربة في أحكام الحسب، نشره ليفي، كمبردج 1937 م.

3 – ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص109.

4 – ابن الفرات (ناصر الدين محمد): تاريخ الدول والملوك، نشره قسطنطين زريق، بيروت 1942، ج7، ص199/ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج12، ص13.

نوع ما [1]. ولكن هذه الحريات كانت تخضع من حين إلى آخر لبعض القيود التي كانت تفرضها الدولة لسبب ما، غير أن هذا لم يمنع أبناء الأقليات الدينية من القيام بدورهم في المجتمع والمشاركة الإيجابية في الحياة اليومية التي يؤثرون فيها بقدر ما تسمح ظروف تعدادهم وأوضاعهم الاجتماعية، ويتأثرون بأحداثها ومجريات الأمور فيها.

ظهر تأثير اليهود والنصارى واضحاً في عادات وتقاليد المجتمع المصري آنذاك فيما أشار إليه ابن الحاج من أن بعض نساء المسلمين كن يقمن بعض التصرفات في حياتهن تبدو التأثيرات اليهودية والمسيحية واضحة عليها، فقد اعتادت بعض النساء ألا يشترين السمك أو يأكلنه في بيوتهن يوم السبت (*ومن المعروف أن اليهود قد حرموا على أنفسهم صيد السمك أو أكله يوم السبت*)، كما ظهر تأثرهن بالعادات المسيحية في عدم الاشتغال بشيء في ليلة الأحد[2].

ومن العادات الاجتماعية التي أثارت احتجاج ابن الحاج واستنكاره باعتبارها ذات أصل غير إسلامي، تلك العادة التي أشار إليها بقوله ((إذا نزلت الشمس في برج الحمل فيخرجون في صبيحة يومهم ذلك رجالاً ونساءً وشباناً، يجمعون شيئاً من نبات الأرض يسمونه بالكركيس فيقطعون ذلك من موضعه بالذهب والفضة والخواتم النفيسة والأساور وغير ذلك... الخ)) [3].

يبدو تأثير اليهود والمسيحيين في العادات والتقاليد المصرية في عصر سلاطين المماليك كان واضحاً لدرجة أثارت استياء ابن الحاج الذي شكا من أن المصريين المسلمين ((... *وضعوا تلك العوائد موضع السنن*)) [4].

ولعل من أكبر الدلائل على أن روح الوئام الاجتماعي قد سادت في كثير من الأحيان بين المسلمين وأبناء الأقليات الدينية في ذلك العصر ما حدث سنة 714 هـ/ 1314 م حين استعار الأقباط بعض القناديل، وأثاث جامع عمرو بن العاص لكي يستخدموها في أحد اجتماعاتهم الدينية

1 - Rabie, The financial system of Egypte Oxford university press 1972. P3

2 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج، ص6.

3 - المصدر السابق، ج1، ص281.

4 - المصدر السابق، ج3، ص65.

في الكنيسة المعلقة بمصر القاهرة [1] وهو ما يثبت على الاعتقاد أن ثمة علاقات وطيدة كانت تربط بين أبناء الأقليات وغيرهم من المصريين في ظروف الحياة العادية.

وهناك دليل على قوة العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأبناء الطوائف الذمية أن بعض المواسم والأعياد الخاصة بالمسيحيين اتخذت طابعاً عاماً. وقد ارتبطت بعض هذه الأعياد بنهر النيل، مما يشير إلى جذورها التي امتدت إلى أيام المصريين القدماء، كما شارك المسلمون و المسيحيون واليهود في بعض الأعياد الأخرى بمظاهر المجاملة الاجتماعية، وتبادل الأطعمة والحلوى وغيرها من الهدايا.

ارتبطت بعض عادات المصريين الاجتماعية ببعض الأعياد المسيحية، فقد اعتاد المصريون أن يصنعوا نوعاً من العصيدة في ((عيد الميلاد)). وكانوا يعتقدون أن كل من يأكل منها لا يصاب بالبرد طوال السنة. كذلك تعوّد الناس على مشاركة المسيحيين عادة غمس أطفالهم في المياه في عيد الغطاس الذي يحل في الشتاء بسبب ما اعتقدوه من أن ذلك يقيهم شر المرض طوال حياتهم. وكان من عادة النساء أن يطلقن البخور في بيوتهن في ((خميس العهد)) بزعم أنه يصرف عنهن العين والكسل والأمراض. وفي ((سبت النور)) كان البعض يكتحلون بالكحل الأسود؛ لأن ذلك يكسبهم نوراً زائداً في أبصارهم [2].

وفي تلك العصور كانت فكرة ((الوطن)) فكرة دينية بحتة وتتعلق بجماعة المؤمنين أكثر مما تتعلق بالأرض وحدودها الجغرافية؛أي أن الوطن الذي يجمع الناس في الحياة الدنيا التي هي مقام زائل ليس هي الأرض كتعبير جغرافي بقدر ما هي الدين والعقيدة التي تربط بين أبناء الأمة، وتعيش الأقليات الدينية في حماية جماعة المؤمنين، ويتمتعون بكافة حقوقهم شرط ألا تعلو مكانتهم فوق مكانة جماعة المؤمنين. إن تراث الاحتكاك الحضاري بين المسلمين والغرب المسيحي بما تخلله من حروب طويلة وعنيفة، منها تلك السلسلة المعروفة باسم الحروب الصليبية، خلف شعوراً بالمرارة تجاه غير المسلمين [3].

---

1 – المقريزي، السلوك، ج4، ص410/ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص218/ ابن حجر، إنباء الغمر، ج3، ص111.

2 – ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص54- 59.

3 – قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص110.

كما أن ثروات أهل الذمة التي كونوها بفضل عملهم في الجهاز الحكومي والتدهور الاقتصادي المستمر لجموع المسلمين جعلت الناس يعبرون عن موقفهم الاجتماعي المتعالي على غير المسلمين تعبيراً دينياً. وبعبارة أخرى فإن العوامل الاقتصادية والاجتماعية قد ألبست ثوباً دينياً لتخلق هذا الموقف الاجتماعي على الرغم من تعارضه مع روح الإسلام، وعلى هذا الأساس يمكن أن نفسر النظرة التي تفترض ألا يكون أبناء الأقليات الدينية زمن المماليك أعلى من مكانتهم الاجتماعية من المسلمين.

ومهما يكن من أمر، فالواضح أن المسيحيين قد عاشوا حياتهم بشكل عادي داخل إطار المجتمع، وغالباً ما كان واقع حياتهم يتجاوز هذه المفاهيم التي ظلت في كثير من الأحيان كامنة في الصدور ولا تعبر عن نفسها سوى في لحظات الإثارة أو الغضب، أما عن دور أهل الذمة في الحياة الثقافية والعلمية في عصر المماليك، فالواقع أن المعلومات المتاحة بهذا الشأن قليلة.

ثالثاً- مظاهر الأعياد وارتباطها بالاستقرار الاجتماعي والسياسي:

تقدم الاحتفالات والأعياد مؤشرا هاماً وصادقاً على مدى تقدم المجتمع وما يتمتع به من استقرار اقتصادي وسياسي واجتماعي؛ لأن النظرة على الكثرة من الأعياد والاحتفالات، وما كان يصحبها من مظاهر البهجة والسرور والرفاهية تكشف صورة تفيض بالبهجة والإشراق لمجتمع يعيش حياة مستقرة في ظل نظام سياسي متين واقتصاد مزدهر، وأوضاع أمنية وطيدة الأركان جعلت هذه الصورة صحيحة في مجملها. كانت دولة سلاطين المماليك في طور الصعود والنمو والقوة، تتمتع بقدر كبير من الثراء والقوة مما جعلها حاكمة قادرة في الداخل، مرهوبة مهابة في الخارج. وتحقق للمصريين قدراً كبيراً من السلام والرخاء النسبي انعكس في النمو السكاني والرواج التجاري الداخلي [1].

كما تمثل في اهتمام الناس بجوانب التسلية والترفيه في حياتهم. و ذكر ابن بطوطة الذي زار مصر في عصر الناصر محمد بن قلاوون في النصف الأول من القرن الرابع عشر أن أهل مصر ((ذوو طرب وسرور ولهو)) [2]. ولا شك أن عصر الناصر محمد بن قلاوون يعدُ من أهم

1 – قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص288.

2 – ابن بطوطة، المصدر السابق، ص32.

فترات التاريخ المملوكي وأكثرها استقراراً وازدهاراً. غير أن ما ذكرناه لا يعني بأية حال أن الصورة كانت مشرقة على الدوام في الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك، وإنما يعني أن الألوان الزاهية في هذه الصورة كانت غالبة على الألوان القاتمة والشاحبة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الفترات التي شهدت صراعاً على كرسي الحكم في عصر المماليك البحرية كانت تترك تأثيراتها السلبية بالضرورة على الأعياد والاحتفالات التي يهتم الناس بها. ولكن البلاد كانت تعيش حياة أفضل بكثير من تلك التي شهدتها مع مطلع القرن الخامس عشر وحتى نهاية ذلك العصر. وإذا ما بدأت دولة المماليك بالتدهور انعكس ذلك بوضوح على كافة مظاهر الحياة على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأمنية، وتتواضع مظاهر الاحتفال في الأعياد والمواسم والمناسبات العامة إلى أدنى مستويات.

فقدت الأعياد بهجتها بسبب توالي الأزمات الاقتصادية والأوبئة فضلاً عن تدهور الأحوال السياسية الداخلية، وانتشار الخوف والفزع من ظلم الحكام وانعدام الأمن، إذ يذكر ابن الصيرفي أن عيد الفطر في سنة 841 هـ/ 1437 م دخل على الناس وهم ((في نكد وجزع وقلق وهم ومصاب...)) بسبب تزايد ضحايا الوباء من ناحية، وكساد الحركة في المدينة بسبب أوامر السلطان بعدم خروج النساء من بيوتهن، فضلاً عن ظلم الحكام وتخبط سياسة الدولة من ناحية أخرى [1].

ويذكر المقريزي أن بعض الأسواق التي ارتبطت بالمواسم والأعياد التي كانت تزدهر وتموج بالحركة والنشاط أثناءها قد تعرضت للذبول والاضمحلال؛ إذ إن ((سوق الشماعين)) على سبيل المثال الذي ارتبط بليالي رمضان والعيد عند المسلمين، والميلاد والغطاس لدى المسيحيين تعرض للكساد بسبب عدم إقبال الناس على شراء الشموع بعد تدهور الأحوال في منتصف القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي حتى آل أمره إلى خمسة حوانيت فقط [2] كما تواضعت مظاهر الاحتفال بأعياد المسيحيين لهذا السبب نفسه [3].

1 - ابن الصيرفي، المصدر السابق، ج3، ص407.

2 - المقريزي، الخطط، ج2، ص93- 106.

3 - المصدر السابق، ج1، ص266- 268/ القلقشندي: صبح الأعشى، ج2، ص426، 430/ السيوطي (جلال الدين): كوكب الروضة، القاهرة، 1979، ص195/ ابن إياس: نزهة الأمم، ص219.

رابعاً– موقف المماليك من أهل الذمة:

تحددت علاقة المماليك بأهل الذمة من خلال نظام سلاطين المماليك؛ لأن طبيعة نظام الحكم من شأنها أن تحدد العلاقة مع الأقليات الدينية، وباعتماد المماليك على مبدأ القوة والاختفاء وراء الواجهة الدينية، فقد كانت علاقتهم مع أهل الذمة بين التسامح الديني الذي تفرضه الشريعة الإسلامية من خلال السماح لهم بممارسة طقوسهم الدينية الخاصة.

تعرض أهل الذمة للاضطهاد في بعض الأحيان من قبل سلاطين المماليك الذين حرصوا على إظهار قوتهم، إما مرضاة لرجال الدين من المسلمين الذين كان يعتمد عليهم المماليك، أو من خلال مصادرة أموالهم وأوقاف الكنائس والأديرة وخاصة أثناء حروبهم مع الصليبيين [1].

وقد حاول سلاطين المماليك الظهور دائماً بمظهر الحامي لأمور الرعية، وخصوصاً أهل الذمة فأصدروا مراسم تأمر لأهل الذمة (أن تكون جهتهم مرعية على الدوام وذمتهم محفوظة بذمة الإسلام) [2].

اختلفت علاقة المماليك بأهل الذمة من يهود ونصارى، فقد كان النصارى يمثلون الأغلبية مقارنة باليهود الذين كانوا طائفة قليلة العدد والوزن، فقد كان النصارى يتمتعون بحماية خارجية من الكنيسة الرومانية والحبشية التي كانت تتدخل للدفاع عن مصالحهم [3]. أما اليهود فلم تكن هناك قوة خارجية تتدخل لصالحهم.

ويتضح أن غياب دولة لليهود في أي بلد من البلدان كان سبباً في عزلتهم. لكن يجب التأكيد على ناحية أن أهل الذمة كان عليهم الالتزام ببعض القيود من حيث الزي أو اللباس المغاير لتمييزهم عن المسلمين. فقد ألزم النصارى باللون الأزرق واليهود باللون الأصفر، وعليهم أن يميزوا أنفسهم بالصلبان حين دخولهم الحمامات [4].

يتضح من هنا أنه كان لأهل الذمة دور في المجتمع من الناحية الاجتماعية والاقتصادية. أما من الناحية الاجتماعية، فقد كانوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع في تلك الفترة، ومن أهم المظاهر

---

1 – المقريزي، الخطط، ج1، ص105.

2 – قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص64.

André Clot, L'Empire des esclaves, P. 227 – 3

4 – ابن دقماق، المصدر السابق، ص395.

التي شاركوا فيها مساعدتهم في تهيئة المدينة وتزيين الأسواق والمحلات عند استقبال مواكب السلاطين [1].

كما كانوا يمارسون مختلف الأنشطة الاقتصادية، فقد تخصص النصارى في النشاط الزراعي إلى جانب التجارة وبعض الصناعات الصغيرة [2]. أما اليهود فقد برعوا في النشاط المصرفي والأعمال المالية [3].

لكن هذا لا يعني أنهم كانوا لا يتعرضون للاضطهاد من طرف السلطة أو العامة وهذا أيضاً لم يمنع من انصهار أهل الذمة في المجتمع وذلك في التأثير ببعض العادات، ومن أولى مظاهر التأثر بالمسلمين هو اعتناق عدد من أهل الذمة للإسلام [4] وإن كان بعض الباحثين يرى إسلام أهل الذمة كان لغاية اقتصادية أو أمنية، فسموا بالمسالمة لكن منهم من حَسُن إسلامه [5].

أما عن تأثر اليهود بالمسلمين فقد اتبعوا بعض عاداتهم مثل فرش الأرض بالسجاد ودخولهم المعبد دون أحذية كما يفعل المسلمون عند دخولهم المساجد [6].

وقد كان أهل الذمة والمسلمون يتشاركون في خروجهم لصلاة الاستسقاء والابتهال عند انخفاض مياه النيل أو تأخر فيضانه، ومثال ذلك ما حدث سنة 775 هـ- 1373 م حين توقفت زيادة النيل وانتشرت المجاعة، فخرج الجميع للصلاة مسلمون ومسيحيون ويهود وهم يحملون كتبهم المقدسة للصلاة حتى تزول عنهم الشدة [7].

خامساً- موقف المسلمين من احتفالات أهل الذمة:

اعتاد المسلمون مشاركة أهل الذمة أعيادهم، وتمثلت هذه المشاركة في تبني هذه الأعياد وتعظيمها أو تبادل الهدايا مع أهل الذمة وخاصة هنا النصارى منهم.

1 - ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج7، ص109.

2 - قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص95.

3 - عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص40.

4 - قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص173.

5 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص271.

6 - قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر، 1977 القاهرة، ص69.

7 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص272.

تعد المصادر التاريخية هذه الظاهرة كنوع من الابتعاد عن الشريعة الإسلامية وتشبههم بأهل الذمة. ففي خميس العهد أو كما يسميه عامة المصريين خميس العدس؛ وهو من أعياد النصارى الرئيسة أو كما يقول ابن الحاج ((*الموسم من مواسم أهل الكتاب التي شاركهم فيها بعض المسلمين*)) [1].كان المسيحيون يهدون إلى المسلمين أنواعاً من السمك المقلي والعدس المصفى والبيض الملون.

كما اعتادت النساء المسلمات في هذا اليوم الخروج للأسواق وشراء البخور واستعمال العدس المصفى، وصباغة البيض في ألوان عديدة، وشراء السلاحف التي تطرد الشيطان من البيت حسب زعمهم.

كما شارك المسلمون المسيحيون احتفالات عيد الميلاد، حيث كان المسلمون يصنعون عصيدة ويزعمون أن من لم يصنع هذه العصيدة أو لم يأكل منها، فإنه يشتد عليه البرد طوال السنة[2].

أما في عيد الغطاس الذي اعتاد فيه النصارى الاغتسال، فإن المسلمين أيضاً صاروا يتبعون عادة وضع أولادهم في المياه الباردة اعتقاداً في أن ذلك يُبعد عنهم الأمراض [3].

وفي عيد الزيتونة كان يحدث اختلاط بين المسلمين والنصارى أثناء الاحتفال، وفي سبت النور كان البعض يتكحل بالكحل الأسود اعتقاداً بأن ذلك يعطيهم نوراً زائداً في أبصارهم [4].

لم يتوقف الأمر عند مشاركة المسلمين النصارى في أعيادهم بل إنهم تأثروا ببعض عاداتهم وهذا يدل على التعايش الاجتماعي بين مختلف الطوائف الدينية في الدولة المملوكية.

فقد كان من عادات النساء عدم شراء السمك أو أكله يوم السبت وفي هذا اتباع لعادات اليهود، كما كان من عاداتهن أيضاً عدم الدخول إلى الحمام يوم السبت وعدم غسل الثياب، وعدم شراء الصابون، وذلك كله من عادات اليهود المتعلقة بحرمة يوم السبت، ونرى هنا أن المسلمين تأثروا بعادات النصارى واليهود وهو ما يؤكد من جديد التعايش بين الطوائف الثلاث.

---

1 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص54. / متز(ادم): الحضارة الاسلامية، دار الفكر، بيروت، 1990، ج2، ص 282./ الزين(حسن): أهل الكتاب في المجتمع الاسلامي، القاهرة، 1986، ص 36- 37.

2 - المصدر السابق، ج2، ص59.

3 - المصدر السابق، ج2، ص59./ المقريزي، الخطط، ج1، ص265.

4 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص60.

ومن عادات النصارى التي اتبعها المسلمون ترك العمل ليلة الأحد، كما اعتادوا عدم شـــراء اللبن ولا شربه يوم الأحد كما كان المسلمون يصنعون في أعياد أهل الذمة أطعمة معينـــة يتهـــادون بها فيما بينهم [1]

لكن هنا لا بدّ من التأكيد على ناحية مهمة، أن المسلمين والنصارى لم يشاركوا اليهود فـــي احتفالاتهم الدينية، نظراً لما اشتهر به اليهود من الحرص على العزلة.

الخاتمة

تعطي جميع الملاحظات التي وردت في البحث صورة لبلاد مزدهرة اقتصادياً،وقوية عسكرياً وسياسياً ، تتدفق حياتها الاجتماعية بالحيوية والنشاط ، وهذه الصورة تتفق بشكل عام مع ما ذكرته المصادر التاريخية من أن عصر المماليك كان عصر قوة مهابة في الخارج، وازدهار ورخاء في الداخل.

ويمكن القول: إن الفترة التي تناولها البحث كانت فترة مهمة،وغنية بالحوادث والمستجدات بفعل عوامل عديدة مملوكية وخارجية، إضافة إلى الظروف المحلية، ومن جهة أخرى فإن التغيرات الاجتماعية في وجوهه المختلفة لم تكن على مستوى واحد، بل تفاوتت بين جانب وآخر بحيث ظهر

---

1 - ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص322.

التغير واضحاً في أحد الجوانب، في حين بقيت جوانب أخرى كأنها جامدة على حالها دون تأخر أو أي تطور.

تعطي دراسة الاحتفالات المملوكية صورة واضحة عن طبيعة المجتمع المملوكي ومكوناته، وعلاقة السلطة بكافة طوائفه، وخاصة علاقتهم بأهل الذمة الذين كانوا عنصراً فعالاً في المجتمع وقد تأثروا بالمسلمين وأثروا بهم.

كما بينت علاقة المماليك بالشيعة وموقف المماليك منهم على اعتبار أنهم دولة سنية، فقد قاموا على إلغاء عيد عاشوراء، وحولوه من عيد حزن إلى عيد فرح، وأصبح مقتصراً على النطاق الشعبي لم يكن للمماليك فيه دور يذكر.

أما الخوض في غمار الأعياد المملوكية فقد يمكن للدارس من خلالها التعرف على عادات المماليك وطبيعة النظام السياسي لهذه الدولة، وقد كان الهدف من تولية الخليفة العباسي في القاهرة بعد سقوطها في بغداد ضمان شرعية الحكم والحصول على التفويض بالسلطنة، وضمان استقرار وتواصل حكم المماليك على مصر.

كان قيامهم بإرسال كسوة إلى الكعبة سنوياً من خلال المحمل السلطاني رمزاً سياسياً ودليل قوة ورخاء،كما حققوا دوراً فاعلاً من خلال بروزهم كقوة وحيدة قادرة على صد الأخطار الخارجية الصليبية والمغولية التي كانت تهدد المنطقة.

ويظهر من خلال إحياء مختلف الأعياد حُرص المماليك على الظهور في المواكب وأهمها مواكب التولية ، وإظهار قوة الدولة وهيبتها من خلال ما يظهر من شعائر السلطنة التي يركب فيها السلطان المملوكي، والتي يظهر من خلالها دور سلاطين المماليك في استحداث بعض الأنظمة الإدارية والتوفيق بين الأنظمة الإسلامية السابقة، والأنظمة التي اقتبسوها.

ومما يؤكد محورية مكانة السلطان وجنوح المماليك إلى الاهتمام بالاحتفالات، وخاصة منها المتعلقة بالسلطان، كانت هذه الظاهرة محط اهتمام المؤرخين وهو ما يبين تكرار هذه الظاهرة مع معظم سلاطين المماليك.

وقد استطاع المماليك إظهار قوتهم وهيبة دولتهم من خلال الألعاب التي كانت الغاية منها الترفيه، والتدرب على فنون الحرب ، وهذا ما جعل المماليك دائماً في جاهزية تامة لصد أي خطر خارجي.

ومن خلال دراسة الأعياد المصرية المرتبطة بالنيل بيّنا خصوصية الاحتفال بها، حيث تميزت هذه الأعياد بمشاركة جميع المصريين في إحيائها بمختلف طوائفهم الدينية وطبقاتهم الاجتماعية.

ويبدو أن الاستقرار السياسي والنمو الاقتصادي للدولة المملوكية قد ساهما في تعدد الأعياد وإحيائها بكل ما يظهر من مظاهر الترف واللهو، وهذه الأعياد ساهمت في نمو المدينة المملوكية، وهذا ما دفعنا إلى القول: إن الاحتفالات تمثل مؤشراً على الاستقرار الاجتماعي، والاقتصادي وخاصة منه الثراء الحضاري.

والبحث في الأعياد المملوكية هو محاولة للتعرف على جانب من جوانب الحياة اليومية التي تتسم بأنّها من أزهى الفترات في العصور الوسطى، وهذه المناسبات تميزت بكثرتها وتنوعها وامتدادها على مدار السنة الهجرية، وخاصة ما يصحبها من احتفالات صاخبة ومظاهر ترف وبذخ.

تميز المجتمع المصري بازدواجية ظاهرها التقوى، وباطنها انحلال وفساد أخلاقي تمثل أحياناً ببعض العادات والتقاليد البعيدة عن الإسلام وما يدعو له الدين الإسلامي، وهذا يوضح مدى تأثير المماليك بالمسلمين وابتعادهم عن الجانب الروحي، والميل أكثر نحو حب الظهور وكثرة اللهو والمجون.

وهذا كله يدفع إلى القول: إن ظاهرة الفساد والعادات التي كانت تصاحب الاحتفالات سواء منها الدينية أو العامة ليست ظاهرة تدل في بعض الأحيان على الاندماج الاجتماعي بين المسلمين وأهل الذمة في العصور الوسطى كما ذهبت معظم الدراسات التي سعت لبيان هذه الظاهرة فقط، بل هي قضية أوسع بينت الانحلال الذي ساد المجتمعات الإسلامية في القرون الوسطى بصفة عامة، إضافة إلى مظاهر اللهو والسرور المتطرف، نتيجة ثراء وترف هذه الدول والتي تجلت في دولة المماليك بشكل خاص.

ويلاحظ هنا نوع من التضارب أو التناقض، فمن ناحية نلحظ من خلال المصادر التاريخية حرص المماليك وخاصة منهم السلاطين على المحافظة على كل المظاهر الدينية من خلال إحياء الأعياد والمواسم الدينية الإسلامية،وإحياء كل رموزه من اهتمام بالمساجد والمنشآت المعمارية الإسلامية ليس في مصر فقط وإنما في كل المناطق.

ومن ناحية أخرى يلاحظ تفشي مظاهر الانحلال، والفساد الأخلاقي، والعادات المستهجنة والفوضى الاجتماعية، وهذا يوضح الإشكالية الأساسية في البحث وهي أن المماليك لم يتمتعوا بروح الإسلام، وإنما تبنوا هذه المظاهر الدينية برموزها لخدمة مشروعهم السياسي،وبالتالي والحصول على الشرعية المفقودة لحكمهم من أجل ضمان استقرار واستمرار دولتهم الناشئة.

وهذا ما يدفع للقول: إن الدولة المملوكية نظام تميز بارتكازه على ركيزتين أساسيتين هما: القوة العسكرية للسلطان، والمتجسدة في قوة المماليك وتأييد الأمراء لسلطانهم، والثانية هي الواجهة الدينية، والمتمثلة في الحصول على التفويض من الخليفة العباسي الذي يضمن شرعية سلاطين المماليك.

والله ولي التوفيق

الفهارس

فهرس الآيات

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

أسماء المصادر و المراجع

المصادر

1. ابن الأخوة (محمد بن محمد): معالم القربة في أحكام الحسب، نشره ليفي، كمبـــردج 1937 م.

2. ابن الحاج(أبو عبد الله محمد بن محمد): المدخل إلى تنميـــة الأعمـــال بتحـــسين النيـــات، القاهرة، ج2، 1929.

3. ابن الزيات، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة. القاهرة،1966.

4. ابن الصيرفي(علي بن داوود): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تح حسن حبشي، القاهرة 1970- 1973 ،ج3.

5. ابن العماد (الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي الدمشقي): شذرات الذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ج5.

6. ابن الفرات (ناصر الدين محمد): تاريخ الدول والملوك، نشره قسطنطين زريق، بيروت ج7، 1942.

7. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، القاهرة، 1285هـ، ج1.

8. ابن إياس(أبو البركات محمد بن أحمد):
   - نزهة الأمم في العجائب والحكم، القاهرة، 1956.
   - بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح محمد مصطفى، ط2، القاهرة، 1963.

9. ابن بطوطة(محمد بن عبد الله): تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، القاهرة، 1985.

10. ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992، ط1، ج6.

11. ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، ط1، 1980، ج5، .

12. ابن خلكان (أحمد بن محمد): وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، م6.

13. ابن دقماق(ابراهيم ابن محمد): الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تح سعيد عاشور، مركز البحث العلمي ، السعودية.

14. ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، 1894.

15. ابن طولون(محمد): إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تــح محمد دهمان، دمشق، 1964.

16. ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن القاهرة، تح مصطفى السقا، القاهرة، 1969، ج2.

17. ابن عبد الظاهر (محي الدين):

- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيــز الخــويطر، الرياض، ط2، 1976.
- تشريف الأيام والعصورفي سيرة الملك المنصور، تح مراد كامل، القاهرة، 1961.

18. ابن كثير (أبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي): البداية والنهاية، توثيق علي محمد حــسن، دار الكتب العلمية، 1974، ج16.

19. ابن منظور– (جمال الدين محمد): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط6، 1997، ج1.

20. ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1957، ج2.

21. أبو الفداء (اسماعيل بن عمر): المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب، بيروت، ج1، ج3، ص180/ المقريزي(أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه أحمد مصطفى زيادة، مطبعة التأليف، مصر، ط1، 1958 ج1

22. أبو شامة (شهاب الدين بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم القدسي الدمشقي): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق ابراهيم زيبق، ط1، 1997، ج3.

23. الأصفهاني (عماد الدين): الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة، د. ت.

24. البيروني(أبو الريحان): الآثار الباقية، طبعة ادوارد سخاو، 1978،

25. حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بيروت، ج1.

26. الحموي (ياقوت): البلدان، تحقيق فريد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج4.

27. الدوادار(ابن أيبك): الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر، نشر روبرت رويمر، القاهرة، د.ت، ج9، ص82. النويري، المصدر السابق، ج30.

28. الذهبي (الحفظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، 1998.

29. الزركلي (خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1997، ج4.

30. السخاوي (محمد بن عبد الرحمن): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة، ج2.

31. السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن):

- حسن المحاضرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، م2.
- السيوطي (جلال الدين): كوكب الروضة، القاهرة، 1979.

32. الشجاعي(شمس الدين): تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الناصري وأولاده، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1960.

33. الصفدي (صلاح الدين خليل): الوافي بالوفيات، تحقيق محمد عمر، دار فرانز ط2، 1974، م2.

34. الطباخ: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، حلب، 1935، ج5.

35. العسقلاني (ابن حجر):

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط2، 1996، ج1.

- أنباء الغمر بأبناء العمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1986، ج7.

36. العمري(شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح دورتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث،ط1، 1986 .
37. العيني (بدر الدين محمود): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد أمين، 1985، ج1.
38. القرآن الكريم.
39. القرماني (أبو العباس أحمد حلبي الدمشقي القرماني): أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق محمد أمين، بغداد، 1272 هـ.
40. القلقشندي(أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الانشاء، تح محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1987 ، ج4.
41. الكاتب(الشافع بن علي): حسن المناقب السرية، تح عبد العزيز خويطر، الرياض، 1976.
42. الكتبي (محمد بن شاكر): فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج2.
43. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الفكر، بيروت، 1980.
44. المقدسي: أحسن التقاسيم، دار الرشيد، بغداد، 1970.
45. المقريزي(أحمد بن علي):
    - إغاثة الأمة بكشف الغمة، تعليق ياسر سيد الصالحين ، مكتبة الآداب القاهرة، د.ت .
    - المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقريزية، بيروت، دار صادر،1950 ج2.
    - المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك، الهيئة المصرية للكتاب،القاهرة، 1956 .
46. المنصوري (بيبرس): التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشره عبد الحميد صالح حمدان، الدار العربية، القاهرة، ط1، د.ت.

47. الموصلي (ابن دانيال): طيف الخيال، دار الكتب المصرية، القاهرة، دت.

48. النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأرب في فنون الإسلام، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، مراجعة محمد مصطفى زيادة ، الهيئة المصرية للكتاب، 1993، ج29.

المراجع العربية

1. الأنصاري (رؤوف): عمارة المساجد، دار الينبوع للطباعة، د. ت، ط1.

2. اسماعيل (شفيق): حقيقة المماليك، دمشق، ط1، 2001.

3. الإيبش (أحمد)– الشهابي (قتيبة): دمشق الشام في نصوص الرحالة والجغـرافيين العـرب والمسلمين، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1998، ج2.

4. حتي(فيليب)- جرجي (ادوارد): تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ط8، 1990.

5. الحجي(حياة ناصر): أحوال العامة في حكم المماليك ، ط1، الكويت، 1984.

6. حسن(ابراهيم حسن): التاريخ الإسلامي، القاهرة، 1989.

7. حطيط (أحمد): الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية، القاهرة، 1986.

8. حمادة (محمد ماهر): الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، مؤسسة الرسالة، ط2،

.1983

9. الخطيب (ابراهيم): تاريخ المغول والمماليك، دار شيرين، عمان، 1993.

10. دائرة المعارف، بإدارة فؤاد أفرام البستاني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1980.

11. دهمان (محمد أحمد): معجم الألفاظ التاريخية، دار الفكر، دمشق، 1991.

12. رافق (عبد الكريم): بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون، دمشق، ط2، د. ت.

13. الرضا(أحمد): معجم متن اللغة، دمشق، 1980.

14. رمضان (هويدا عبد العظيم): المجتمع في مصر الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، مصر، ج2.

15. زعرور (ابراهيم): الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي، مطبعة الجمهورية، دمشق، 1993.

16. الزوادي (محمود): أضواء جديدة على محدثات العقل العمراني الخلدوني، مركز النشر الجامعي، 2003.

17. زيادة(محمد مصطفى): بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، م4، ج1، 1936.

18. زيتون (عادل): تاريخ المماليك، منشورات دمشق، ط5، 1996.

19. الزيدي(مفيد): التاريخ الاسلامي (العصر المملوكي)،دار أسامة، عمان، 2003 .

20. الزين (حسن): أهل الكتاب في المجتمع الاسلامي، القاهرة، 1986،

21. سلام (محمد زغلول): الأدب في العصر المملوكي في مصر، دار المعارف، 1978، ج1.

22. سليم (محمود رزق): عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي مصر ،ط2، 1962.

23. شبارو (عصام): المماليك والسلاطين في الشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري، بيروت، دار النهضة العربية، 1994.

24. طرخان (ابراهيم علي): مصر في دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1960.

25. طقوش (محمد سهيل): تاريخ المماليك في مصر والشام، دار النفائس، 1997، ج1.

26. ظاظا (حسن): الفكر الديني الإسرائيلي، القاهرة، 1971 ص194.

27. عاشور (سعيد):

- العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنغلو مصرية، ط1994، 3 .
- بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، 1977.
- صور من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى، القاهرة، 1968.
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، 1962

28. العبادي (أحمد مختار): قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت، 1969.

29. عنان(محمد عبد الله): مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1964.

30. فرح (مراد): القراؤون والربانيون، القاهرة، 1978 .

31. فهمي (نعيم زكي): طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1973.

32. قاسم (عبده قاسم):

- اليهود في مصر، القاهرة، 1977.
- بعض مظاهر الحياة اليومية، القاهرة، 1968
- أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، القاهرة ، دار المعارف، 1979.
- عصر سلاطين المماليك، دار الشروق، القاهرة، 1994.

33. قاسم (قاسم)– علي (علي): الأيوبيين والمماليك، العين للدراسات، ط2، 1996.

34. كرد علي (محمد): خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، 1983.

35. كيال(منير): رمضان وتقاليده بدمشق، دمشق، ط1، 1974.

36. ماجد (عبد المنعم): نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، القاهرة، 1982.

37. المطوي (محمد العروسي): السلطنة الحقيقية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

38. مكي(محمد كاظم): المدخل إلى حضارة العصر العباسي، دار الزهراء، بيروت، 1988.

39. مناف (محمد عبد الله): مؤرخو مصر الإسلامية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1969.

40. المنجد(صلاح الدين): مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1967.

41. النباهين (علي سالم): نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر، ط1، 1981.

42. نعيسة(يوسف): مجتمع مدينة دمشق، دار طلاس، دمشق، ط1، 1986،ج 2.

43. أحمد (عبد الرازق): الرنوك في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، 1991.

المراجع المعربة

1. سيمينوفا (ل): صلاح الدين (المماليك في مصر)، ترجمة حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة، 1998،.

2. إيفانوف (نيقولاي): الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، 1988.

3. التطيلي(بنيامين): رحلة بنيامين البطيلي، بغداد، 1348هـ.

4. زامبارو: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي حسن، حسن محمود، القاهرة، 1992، ج1.

5. سوفاجيه (جان): دمشق الشام، تعريب فؤاد أفرم البستاني، تحقيق أكرم العلبي، ط1، 1989.

6. القيروز (أبادي): القاموس المحيط، بيروت، 1960.

7. كراتشكوفسكي(إغناتي يوليانوفيتس): تاريخ الادب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الـــدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1965.

8. متز(ادم): الحضارة الاسلامية، دار الفكر، بيروت، 1990، ج2.

المراجع الأجنبية

1. Abd al – Razzaq Ahmad, la femme au temps Mamluks, Paris, 1995.

2. André Clot
   - L'Empire des esclaves ,1969.
   - L'Egypt des mamluks, 1989.

3. Atiya (A.S) The Crusades in The Middle Ager (London 1938).

4. Becher G., Le Ghashija, comme embléme dela Royant'c, Palermo. 1910.

5. Catherine Mayeur Joauen, gens de la maison et mouleds

d'Egypte,1991.

6. Demombynes G, Là Syria A l'époque des mamloukes,Paris .

7. Dopp. L'Egypte au commencement du quanzieme siècle,1975.

8. Historiens orientaux des croisades. 5 Tomes Paris, 1872- 1906.

9. Ibn Kathir: Historica Arabica. II. 1955.

10. J. C. Garcin:
- Le proche oriente à L'épouque mamluke,1987
-Le système mamluk et le Blocage de la société mamluk,1990.

11. J.oinvill, the life of saint Louis, transl by M.R.B.Shaw, penguin 1975.

12. Jomier. Jacques, le mahmal et la caravane egyptienne des pèlerins de la Mecque (XII- XX siècles) 1988.

13. Kramers (J. H). S V, ALNil. El, T VIII ,1983.

14. Levy (R). SV. Nawruz, El. TVII, London, 1996.

15. Popper W, History of Egypt, 1382- 1469, California, 1909- 1933

16. Rabie, The financial system of Egypte Oxford university press 1972.

17. Robert Hillenbrand Isamic Art and Architecure, 1991, thamas

and Husdson LTd, London, printed in Slovenia.

.18 Runciman;A History of the crusades, 3 vols, Cambridge, 1957 .

.19 Wiet.G; L. Egypte Arabe, Paris, 1937